http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً في الرؤية ، وللأذن حدوداً في السمع ، فللعقل حدود في التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل في المجال الذي تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان في كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم؛ لأنهم خاضوا في قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أي مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على قضية إلا قضية واحدة ، وهي أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمنِ الذي أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث؟

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التي تبحثون عنها ، وتَرْمُحُون بعقولكم خلفها ، في حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذي يُبين لنا نفسه .

لقد ضربنا مثلاً لذلك ولله المثل الأعلى وقلنا : هَبْ أننا في مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب فكلنا نتفق في التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصوّر أنه امرأة ، وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد رَدَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [الإسراء : 49]

بقوله تعالى : { قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنى تُؤْفَكُونَ } [يونس : 34]

وبقوله تعالى : { يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 104]

وبقوله تعالى : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . } [الروم : 27] فإعادة

الشيء أهون من خَلْقه أَوّلاً .
وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً لتشكيك الناس في دين الله ، ومن مغالطاتهم في هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالي عناصر من عناصر الميت ، وتتكوّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التي تكوّنت في الثاني نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث إذن على حَدِّ قَوْلهم؟
والحقيقة أنهم في هذه المسألة لم يفطِنُوا إلى أن مُشخّص الإنسان شيء ، وعناصر تكوينه شيء آخر .

. كيف؟
هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرِجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمّا يأكل؛ لذلك يضعف .
فلو مرض إنسان مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعي ، فهل الذرات التي خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هي بعينها الذرات التي دخلتْه حين تَمَّ علاجه؟ إن الذرات التي خرجتْ منه لا تزال في (المجاري) ، لم يتكون منها شيء أبداً ، إنما كميّة الذرّات ومقاديرها هي التي تقوي وتشخص .
وربنا سبحانه وتعالى رحمة منه ، قال : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التي تُكوّن فلاناً المشخّص .
ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } .

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50)

أي : قُلْ ردّاً عليهم : إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعِبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة في فترة من الفترات ، ولها إِلْف بالحياة ، فمن السهل أنْ نعيدَ إليها الحياة ، بل وأعظم من ذلك ، ففي قدرة الخالق سبحانه أنْ يُعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد ، وهي المادة التي ليس بها حياة في نظرهم .
وكأن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد؛ لأن الحديد أشدّ من الحجارة وهو يقطعها ، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً

لأعدْناكم حديداً .
ثم يترقّي بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى : { أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } .

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51)

قوله تعالى : { أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . } [الإسراء : 51] أي : هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوغّلوا في التحدّي والبُعْد عن الحياة ، فأنا قادر على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها .
وقوله : { مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . } [الإسراء : 51]
يكبر : أي يعظُم مِنْ كَبُر يكْبُر . ومنه قوله تعالى : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } [الكهف : 5] أي : عَظُمت . والمراد : اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم في بيئتهم الحجارة والحديد ، فَهُما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس في محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم في فَرْضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شيء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد .
ونلاحظ في قوله تعالى : { مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . } [الإسراء : 51] جاء هذا الشيء مُبْهَماً؛ لأن الشيء العظيم الذي يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا في أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا في الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى في نفس كُلّ واحد كل على حَسْب ما يرى .
بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً رضي الله عنه ، وكرّم الله وجهه عن أقوى الأجناس في الكون ، وقد علموا عن الإمام عليّ سرعة البديهة والتمرُّس في الفُتْيَا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذي يحتاج في الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .
دخل عليهم الإمام علي وهم مختلفون في هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى . ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فأفتاهم الإمام في هذه القضية ، وانظر إلى دِقّة الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يَقُل : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .
فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحضرة في ذِهْنه ، مُرتَّبة في تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفَرَدَ أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذي استحضر درسه وأعدَّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفئ النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشيء ويمضي لحاجته ، والسكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله في الكون الهم » .

فهذه الأجناس هي المراد بقوله تعالى : { أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . } [الإسراء : 51] فاختاروا أيّاً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبعثتكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : { فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الإسراء : 51] أي : أن الذي خلقكم بدايةً قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أَهْوَن من الخَلْق بدايةً ، ولكن الجواب لا يكون مُقنِعاً إلا إذا كانت النتيجة التي يأتي بها الجواب مُسلّمة . فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أوّل مرة؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفْرهم ، بدليل قولهم : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ } [الزخرف : 87] فهم مقتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا : مَنْ يُعيدنا؟ فإنْ قلت لهم : الذي فطركم أول مرة . { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ . . } [الإسراء : 51]

معنى يُنغِض رأسه : يهزُّها من أعلى لأسفل ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما تقول ، والمتأمل في قوله { فَسَيُنْغِضُونَ } يجده فِعْلاً سيحدث في المستقبل ويقع من مُختارٍ ، والمقام مقام جَدلٍ بين الكفار وبين رسول الله ، وهذه الآية يتلوها رسول الله على أسماعهم ويخبر أنه إذا قال لهم : { الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الإسراء : 51] فسينغضون رؤوسهم .

فكان في وُسْع هؤلاء أنْ يُكذِّبوا هذا القول ، فلا يُنغِضون رؤوسهم لرسول الله ويمكرون به في هذه المسألة ، ولهم بعد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتهموه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فهاهي الآية تُتْلىَ عليهم وتحْتَ سَمْعهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدلُّ على غباء الكفار وحُمْق تفكيرهم .

وما أشبه هذا الموقف منهم بموقفهم من حادث تحويل القبلة حينما قال الحق سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : { قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . . } [البقرة : 144]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142]

وهذا قَوْلٌ اختياريّ في المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية أَلاّ يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مِأْخَذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن؛ لأن الحق سبحانه

يعلم أنهم سيقولون لا محالة : { وَيَقُولُونَ متى هُوَ . . } [الإسراء : 51]
والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجُّب الدالّ على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث على ميعاد الحدث ، وهذا تراجعٌ منهم في النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعيدنا؟ والآن يقولون : متى؟ فيأتي الجواب : { عسى أَن يَكُونَ قَرِيباً } [الإسراء : 51]
عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر مُتوقّع يختلف باختلاف الراجي والمرجو منه ، فإذا قُلْت مثلاً : عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما؛ لأنه رجاء من غيري لك ، أما لو قلْت : عسى أنْ أُعطيك كذا ، فهي أقرب في الرجاء؛ لأنني أتحدَّث عن نفسي ، وثقة الإنسان في نفسه أكثر من ثقته في الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأيِيّ فلا أعطيك ، أو يأتي وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قُلْتَ : عسى الله أن يعطيك فلا شكَّ أنها أقربُ في الرجاء؛ لأنك رجوت الله تعالى الذي لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء . وإنْ كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .
وقد شرح لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مسألة القرب فقال : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسَّبابة والوسطى؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما ، كما أننا نقول : كُلُّ آتٍ قريب ، فالأمر الآتي مستقبلاً قريب؛ لأنه قادم لا محالةَ .
ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً } .

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

هذا في يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها في الدنيا؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح في الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا دَخْل للإرادة بها .
فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح ، ولم يَعُدْ لها سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . } [فصلت : 21]
لقد كانت لكم وَلاَية علينا في دُنْيا الأسباب ، أما الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ

الواحد القهار } [غافر : 16]

ففي الدنيا ملَّك الناس ، وجعل مصالح أُناسٍ في أيدي آخرين ، أما في الآخرة ، فالأمر كله والمُلْك كله لله وحده لا شريك له .

فقوله تعالى : { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ . . } [الإسراء : 52] أي : يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية في الصُّور { فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ . . } [الإسراء : 52] أي : تقومون في طاعة واستكانة ، لا قوْمةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس ، فكلّ هذا انتهى وقته في الدنيا ، ونحن الآن في الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : { فَتَسْتَجِيبُونَ . . } [الإسراء : 52] ولم يقل : فتُجيبون؛ لأن استجاب أبلغُ في الطاعة والانصياع ، كما نقول : فهم واستفهم أي : طلب الفَهْم ، وكذلك { فَتَسْتَجِيبُونَ } أي : تطلبون أنتم الجواب ، وتُلحُّون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبَّوْن عليه ، فتُسرعون في القيام .

ليس هذا وفقط ، بل : { فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ . . } [الإسراء : 52] أي : تُسرعون في القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد لا يكون إلا على شيء محبوب؟

نعم ، إنهم يحمدون الله تعالى؛ لأنهم عاينوا هذا اليوم الذي طالما ذكَّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألحَّ عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذَّبوا ، وها هم اليوم يَرَوْنَ ما كذَّبوه وتتكشّف لهم الحقيقة التي أنكروها ، فيقومون حامدين لله الذي نبَّههم ولم يُقصِّر في نصيحتهم . كما أنك تنصح ولدك بالمذاكرة والاجتهاد ، ثم يخفق في الامتحان فيأتيك معتذراً : لقد نصحتني ولكني لم أستجبْ .

إذن : فبيانُ الحق سبحانه لأمور الآخرة من النِّعَم التي لا يعترف بها الكفار في الدنيا ، ولكنهم سيعترفون بها في الآخرة ، ويعرفون أنها من أعظم نِعَم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى في سورة (الرحمن) : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 34] بعد قوله تعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ } [الرحمن : 34] فالآية في نظرهم تتحدث عن نِقْمة وعذاب ، فكيف يناسبها :

{ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35]

والمتأمّل في الآية يجدها منسجمة كل الانسجام؛ لأن من النعمة أن نُنبِّهك بالعِظَة للأمر الذي ينتظرك والعذاب الذي أُعِدَّ لك حتى لا تقعَ في أسبابه ، فالذي يعلم حقيقة العذاب على الفِعْل لا يقترفه .

ثم يقول تعالى : { وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 52]

الظن : خبر راجح؛ لأنهم مذبذبون في قضية البعث لا يقين عندهم بها .

{ إِن لَّبِثْتُمْ } أي : أقمتُم في الدنيا ، أو في قبوركم؛ لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شيء . وكذلك في القبور؛ لأن الميت في قبره شِبْه النائم لا يدرك كم لَبِثَ في نومه ، ولا يتصوّر إلا النوم العادي الذي تعوّده الناس .

ولذلك كل مَنْ سُئِل في هذه المسألة : كم لبثتم؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداثَ فيها ، فكيف إذن سنراقب الأحداث والملَكة الواعية مفقودة؟

وقد قال تعالى في آية أخرى : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [النازعات : 46]

وقال : { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأرض عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ العآدين } [المؤمنون : 112-113]

أي : لم يكُنْ لدينا وَعْيٌ لنعُدّ الأيام ، فاسأل العَادّين الذين يستطيعون العدَّ .

وفي قصة العزيز الذي أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . } [البقرة : 259] على مُقْتضى العادة التي أَلِفَها في نومه ، فيُوضِّح له ربه : { بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمَارِكَ } [البقرة : 259]

فالمدّة في نظر العزيز كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبَوْنُ شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقوْلاَن صادقان . والحق سبحانه أعطانا الدليل على ذلك ، فقد بعث العُزَير من موته ، فوجد حماره عظاماً بالية يصدُق عليها القول بمائة عام ، ونظر إلى طعامه وشرابه فوجده كما هو لم يتغير ، وكأنّ العهدَ به يوم أو بعض يوم ، ولو مَرّ على الطعام مائة عام لتغيَّر بل لتحلَّل ولم يَبْقَ له أثر .

وكأن الخالق سبحانه قبض الزمن وبَسَطه في وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن : قَوْلُ الحق سبحانه مائة عام صِدْق ، وقول العُزَير { يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } صِدْق أيضاً ، ولا يجمع الضِّدَّيْن إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبوة وتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن موقفهم من منهج الله وكفرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أنْ يُعطينا الدروس التي تُربّب منهج الله في الأرض ، فقال تعالى : { وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ التي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ } .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53)

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين عبيد وعباد ، وأنهما جَمْع عبد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضع لسيّده في الأمور القهرية ، وتمرَّد عليه في الأمور الاختيارية ، أما عباد فتدلّ على مَنْ خضع لسيده في كُلِّ أموره القهرية والاختيارية ، وفضَّل مراد الله على مُرَاده ، وعنهم قال تعالى : { وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً * وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } [الفرقان : 63-64]

وهذا الفَرْق قائم بينهما في الدنيا دون الآخرة ، حيث في الآخرة تنحلّ صفة الاختيار التي بنينا عليها التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع في الآخرة ، فكلهم عبيد وعباد؛ لذلك قال تعالى في الآخرة للشيطان : { أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل } [الفرقان : 17] فسمَّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : { يَقُولُواْ التي هِيَ أَحْسَنُ } [الإسراء : 53]

أي : العبارة التي هي أحسن ، وكذلك الفِعْل الذي هو أحسن . والمعنى : قُلْ لعبادي : قولوا التي هي أحسن يقولوا التي هي أحسن؛ لأنهم مُؤتمرون بأمك مُصدِّقون لكَ .

و { التي هِيَ أَحْسَنُ } تعني : الأحسن الأعلى الذي تتشقَّق منه كُل أَحْسَنيات الحياة ، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول : « خَيْرُ ما قُلْتُه أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله » « .

لأن من باطنها ينبتُ كل حسن ، فهي الأحسن والكبيرة؛ لأنك ما دُمْتَ تؤمن بالله فلن تتلقّى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجوَ إلا هو ، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه في الدنيا والآخرة .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها؛ لأنك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفي بنفسك فقط ، بل تحب أنْ يُشاركك الآخرون هذا الخير؛ لذلك إذا أردنا أن ننطقَ بهذه الكلمة نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعني عند مَنْ لم يشهد ، فكأن إيمانك بها دَعاك إلى نَقْلها إلى الناس ، وبثّها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول { التي هِيَ أَحْسَنُ } الأحسن هو : كل كلمة خير ، أو الأحسن هو : الجدل بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى : { وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل : 125]

أو نقول : الأحسن يعني التمييز بين الأقوال المتناقضة وفَرْزها أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن إذن تَشيُع لتشمل كُلَّ حَسَن في أيّ مجال من مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولنأخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا كان في سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شكّ أن المعارض كَارِهٌ لمبدئك العام ، فإنْ قَسَوْتَ عليه وأغلظْتَ له القول أو اخترتَ العبارة السيئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف في مبدأ عام على عَدَاء شخصي .

وإذا تحوَّلَتْ هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أججَّتَ أُوَار غضبه؛ لأنه في حاجة لأنْ تَرْفُقَ به ، فلا تجمع عليه مرارة أنْ تُخرِجه مما أَلِف إلى ما يكره ، بل حاول أنْ تُخرِجه مما أَلِف إلى ما يحب لتطفئ شراسته لعداوتك العامة ، وتُقرِّب من الهُوّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : { وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34]

وقد يطلُع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتي هي أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوي قائماً على عداوتي ، ولم أكسب محبته . نقول له : أنت ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله ، والتجربة مع الله شَكٌّ ، فادفع بالتي هي أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروعَ قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُه الفِعَالُ مِنَ التِي ومِنَ الذِي ... ادْفَع فَدَيْتُك بالتِي حتَّى تَرَى فَإِذَا الذِي

لكن ، لماذا نقول التي هي أحسن؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : { إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ . . } [الإسراء : 53] والنزْغ هو نَخْس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى في آية أخرى : { وَإِماَّ يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله } [الأعراف : 200]

فإن كنْت مُنتبِهاً له ، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْعه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : { مِن شَرِّ الوسواس الخناس } [الناس : 4] أي : الذي يخنس ويختفي إذا ذُكِرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حِيَلُة ، واستجبتَ لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتي خواطر الشيطان وكأنها مِجَسٌّ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذَّره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرَّة بعد أخرى لِيُجرّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتي هي أحسن لا تعطي للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه ، وهكذا يتحول الخلاف في المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صِلَة لك بهما ، ولكن ضايقك هذا النزاع ، فما عليك إلا أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وأتحدّى أن يستمر النزاع بعدها ، إنها الماء البارد الذي يُطفئ نار الغضب ، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوس ، وما أشبهك في هذا الموقف برجل الإطفاء الذي يسارع إلى إخماد الحريق ، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة في الإصلاح ، وليس لك مأرَبٌ من هذا التدخّل .

والحق سبحانه يقول : { إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ . . } [الإسراء : 53]

تلاحظ أن نَزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ ديني عقدي ، بل

ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة ، ألم يَقُل يوسف : { مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إخوتي } [يوسف : 100]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خَيْريتهم ، وأنت تستطيع أنْ تُميّز بين الخيِّر والشرير ، فتجد الخيِّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضاءل إلى أهون الأشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بأهونِ الأشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قوْل إخوة يوسف : { اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً } [يوسف : 9] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به : { وَأَلْقُوهُ فِي غيابت الجب } [يوسف : 10] وقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لأخيه ، بدليل قوله تعالى : { يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة } [يوسف : 10] وهكذا تضاءل الشر في نفوسهم .

ثم يقول تعالى : { إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً } [الإسراء : 53]

أي : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم عليه السلام فهي عداوة مسبقة ، قال عنها الحق سبحانه : { إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى } [طه : 117] لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم عليه السلام ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه ، وبذلك يُربّي في ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ في أذهانهم .

فقوله تعالى : { إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً } [الإسراء : 53] أي : كان ولا يزال . وإلى يوم القيامة بدليل قوله : { لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 62]

أي : لأتعهّدنّهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54)

في هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إنْ شاء يرحمنا بفضله ، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منّا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب؛ لذلك يَحسُن بنا أن ندعوُ الله بهذا

الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .
والحق تبارك وتعالى لا يُيئس العُصَاة من فضله ، ولا يملي لهم بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .
وحينما كان المسلمون الأوَّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر في أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذي يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ » .
لقد كانوا في مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ، فالضعيف منهم عاجز عن المواجهة ، والقوي منهم لا يستطيع حماية الضعيف؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقترح عليه الرد على الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم : « لم أومر ، لم أومر . . » . .
لأن الله تعالى أراد أَلاَّ يبقي للإيمان جندي إلا وقد مَسَّه العذاب ، وذاق ألوان الاضطهاد ليربي فيهم الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد؛ لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله في الأرض ، ولا شكَّ أن القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بُدَّ من تمحيص المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام في عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرَّت به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .
وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربلة المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوي المأمون على حَمْل منهج الله ، والانسياح به في شتَّى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى في صفوف المؤمنين مَنْ يحمل راية الإيمان لمغنَم دنيوي ، فالغنيمة في الإسلام ليست في الدنيا بل في جنة عَرْضُها السماوات والأرض .
لذلك ، ففي بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . « قال : أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ فماذا قال لهم رسول الله؟ أقال لهم تملكون الدنيا؟ لا ، بل قال : » لكم الجنة « قالوا : فلك ذلك » .

فهذه هي الجائزة الحقيقية التي ينبغي أن يفوز بها المؤمن؛ لأنه من الجائز أن يموت أحدهم بعد أن أعطى رسول الله هذا العهد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا في ظل الإسلام ، إذن : فالنبي صادق في هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنة فلا بُدَّ لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويُواجهون الفتن والمكائد .

فالمعنى : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ } [الإسراء : 54] بالخروج من مكة مهاجرين إلى ديار الأمن في الحبشة { أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ . . } [الإسراء : 54] أي : عذاباً مقصوداً لكي يُمحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } [الإسراء : 54]

الوكيل : هو المفوَّض من صاحب الشأن بفعل شيء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولستَ مسئولاً بعد ذلك عن إيمانهم ، ولستَ وكيلاً عليهم؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } [الإسراء : 54]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قَدْره ، بل هي رحمة به ورأفة ، كأنه يقول له : لا تُحمِّل نفسك يا محمد فوق طاقتها ، كما خاطبه في آية أخرى بقوله : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] فالحق تبارك وتعالى في هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول صلى الله عليه وسلم يجده عِتَاباً لصالحه صلى الله عليه وسلم رحمةً به ، وشفقةً عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصحّح للرسول خطئاً وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : { عَبَسَ وتولى * أَن جَآءَهُ الأعمى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى } [عبس : 1-3] الله تعالى يعتب على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه ترك الرجل الذي جاءه سائلاً عن الدين ، وشَقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكأن الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حِرْصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك في قوله تعالى : { ياأيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [التحريم : 1]

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها . كما تعتب على ولدك الذي سَهِر طويلاً في المذاكرة حتى أرهقَ نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السماوات والأرض . . . } .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55)

قوله تعالى : { أَعْلَمُ } أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة في العلم ، وإنْ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أنْ يتصفَ بالعلم ، فنقول : عالم . ولكن الله أعلم؛ لأن الله تعالى لا يمنع عباده أن

تشرئب عقولهم وتطمح إلى معرفة شيء من أسرار الكون .

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى أمتك ، وقد سُبِقت الآية بقوله تعالى : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ . . } [الإسراء : 54] ولكن علمه سبحانه يسَع السماوات والأرض عِلْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد ، كُلّ على حسب حاله ، وعلى قَدْر ما يُصلحه .

فإنْ رأيتَ شخصاً ضيَّق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا ، ولا يُصلحه إلا ما قَسَمه الله له؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له ، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة ، وليس بين أحد منهم وبين الله نسب .

فالجميع عنده سواء ، يعطي كُلاً على قَدْر استعداده عطاءَ ربوبية ، لا يحرم منه حتى الكافر الذي ضاق صدره بالإيمان ، وتمكّن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق ، فالله تعالى لا يحرمه مِمّا أحبّ ويزيده منه .

إذن : لعلمه سبحانه بمَنْ في السماوات والأرض يعطي عباده على قَدْر مَا يستحقّون في الأمور القَهْرية التي لا اختيارَ لهم فيها ، فهُمْ فيها سواء . أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأَخْذ بالأسباب ، فالأسباب موجودة ، والمادة موجودة ، والجوارح موجودة ، والعقل موجود ، والطاقة موجودة . إذن : على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقي بحياته على قَدْر استطاعته .

ثم يقول تعالى : { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ } [الإسراء : 55]

مَن الذي فضَّل؟ الله سبحانه وتعالى هو الذي يُفضّل بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفضّل إلا مَنْ فضَّله الله؛ لأنه سبحانه هو الذي يملك أن يُجازي على حَسْب الفضل ، أما نحن فلا نملك أنْ نجازي على قَدْر الفضل .

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

لأن الذي يُفضِّل هو الله تعالى ، وقد نُصّ على هذا التفضيل في قوله تعالى : { تِلْكَ الرسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ الله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس } [البقرة : 253]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أُولى العزم من الرسل قد فَضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمّلوه من مشقة في دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والانسياح به ، أو من طول مُدّتهم من قومهم . . الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : { وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً } [الإسراء : 55]

فلماذا ذكر داود بالذات مقترناً بالكتاب الذي أُنزل عليه؟ قالوا : لأن داود عليه السلام أُوتِي

مع الكتاب المُلْك ، فكان نبياً ملكاً ، فكأن الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه مِلك ، بل من حيث هو نبي صاحب كتاب .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « لقد خُيِّرْتُ بين أن أكون عبداً نبياً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً » .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً } .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56)

الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : قل للذين يُعارضونك في الوحدانية إذا مسَّكم ضُرٌّ فلا تلجأوا إلى مَنْ تكفرون به ، بل الجأوا إلى مَنْ زعمتم أنهم شركاء وآمنتم بهم . فإنهم لن يستمعوا إليك؛ لأن الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولو علموا أن الذين يتخذونهم آلهة من دون الله ينفعونهم في شيء لما دَعَوْا ربهم الذين يكفرون به وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطغى إلا إذا كان مُسْتغنياً بكل ملكاته ، بمعنى أن تكون ملكاته كلها على هيئة الاستقامة والانسجام ، فإذا اختلتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال مِمَّن لا يملكه ، بل يطلبه مِمَّنْ يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 67]

وقال : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ . . } [الزمر : 8]

لماذا؟ لأن ما أصابه من ضُرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكاليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضُّر وأحاط به البلاء فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف في الماضي وكان مسئولاً عن صِحَّة الناس ، ويقوم مقام الطبيب في هذا الوقت ، فإذا ما عُيِّن بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقِلَّة الخبرة ليخلوَ له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد في رزقه ، ومرَّت الأيام وأصيب الحلاق بضُرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيةً بليْل ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

إذن : الإنسان في ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسكم الضر فاذهبوا إلى مَن ادعيتم أنهم آلهة وأدعوهم ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم : { فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ . . } [الإسراء : 56]

وقوله تعالى : { وَلاَ تَحْوِيلاً } [الإسراء : 56] أي : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعدائكم ، فهم إذن لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله صلى الله عليه وسلم الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر في ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم فرضاً ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذي يملك وحده كَشْف الضُّر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة . . . } .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57)

فهؤلاء الذين تعتبروهم آلهة وتتخذوهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسَّلون إليه ، فالمسيح الذي أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : { لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون } [النساء : 172]

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبَّوْن أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرُّب إليه سبحانه ، فكيف إذن تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد؟

وقوله تعالى : { يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة . . } [الإسراء : 57] أي : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى { أَيُّهُمْ أَقْرَبُ } أي : كلما تقرّ ب واحد منهم إلى الله ابتغى اللهَ أكثرَ من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغي القُرْبى ، فما بال الأبعد؟

وقوله تعالى : { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } [الإسراء : 57]

أي : يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فِكاكَ منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسِب العذاب إلى الله فلا شكَّ أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : { إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوحدانية في آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أنْ شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم } [آل عمران : 18]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادة المشهد والمعاينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أنْ يطلب مِنّا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته في الكون ، وما دام { لاَ إله إِلاَّ هُوَ } يقول للشيء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء

ويُغيِّر من وضع إلى وضع ، فإنْ صحَّتْ هذه الشهادة الثلاثة فقد انتهت المسألة . وإنْ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو؟! إنْ كان لا يدري فهو إله نائم لا يصلح لهذه المكانة ، وإن كان يدري فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن : فهذه الدَّعْوى قد سلمتْ للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد لنفسه ، فهي للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدعيها لنفسه .

قال تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42]

أي : لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذي استقرتْ له الأمور واستتبّ له الحال ، ليُجادلوه في هذه المسألة ، أو لطلبوه ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً . . . } .

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58)

ساعةَ أنْ تسمعَ { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ } فاعلم أن الأسلوب قائم على نفي وإثبات ، فالمعنى : لا توجد قرية إلا والله مُهلِكها قبل يوم القيامة ، أو مُعذِّبها عذاباً شديداً ، لكن هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم؟

نقول : لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات في القرآن تُقيّدها قرآنيات أخرى ، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه : { ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام : 131]

وقال تعالى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود : 117]

فهذه آيات مُخصِّصة تُوضِّح الاستثناء من القاعدة السابقة ، وتُقيِّد المبدأ السابق والسور العام الذي جاءت به الآية ، فيكون المعنى إذن وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلِحة إلا والله مُهلكها أو مُعذِّبها .

وقوله : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا } [الإسراء : 58]

{ مُهْلِكُوهَا } أي : بعذاب الاستئصال الذي لا يُبقِي منهم أحداً .

{ مُعَذِّبُوهَا } أي : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فإنْ أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد الناس إلى الصواب فبها ونِعْمتْ وتنتهي المسألة ، فإنْ لم يقتنعوا وأصرُّوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتي الإهلاك ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112]
والواقع أن في حاضرنا شواهدَ عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ لأيّ قرية طغتْ وبغَتْ أن ينالها شيء من العذاب ، والأمثلة أمامنا واضحة ، ولا داعيَ لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .
وطبيعي أن يأتي العذاب قبل الإهلاك؛ لأن العذاب إيلام حيّ يشعر بالعذاب ويُحِسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .
وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذي لا يُرَدُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال؛ لأن الأنبياء في هذا الوقت لم يكونوا مُطَالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبي الجهاد معه لنشر دعوته ،كما حدث من أتباع موسى عليه السلام : { إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ } [البقرة : 246]
وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحَمْل السلاح ، ولكن حذّرهم نبيهم ، وخشي أنْ يفرضَ عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يَبْق معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهِمَّة الإنسانية في هذا الوقت لم يكُنْ عندها استعداد ونضج لأنْ تحملَ سلاحاً في سبيل الله ، فكان على الرسول أنْ يُبلّغ ، وعلى السماء أنْ تُؤدّب بهذا اللون من العذاب الذي يستأصلهم فلا يُبقى منهم أحداً .
أما في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } [الأنفال : 33]
وهذه هي كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَاطُ بهم حَملُ رسالته ونَشْر دعوته ، والانسياح بمنهج الله في شتى بقاع الأرض .
ذلك لأن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقدِّر غفلة الناس عن المنهج ، ويُقدِّر فكرة التأسِّي بالجيل السابق ، فهذان مُعوِّقان في طريق منهج الله ، يقول تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ } [الأعراف : 172-173]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبّط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب تقليد أعمى لأُسْوة سيئة ، فأول مَنْ تلقى عن الله آدم ، ثم بلّغ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثتْ الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِّب في الإنسان من حُبٍّ للشهوات ، وهذه الشهوات هي التي تصرفه عن منهج ربه ، فإنْ حدثت غفلة في جيل فإنها سوف تزداد في الجيل التالي ، وهكذا؛ لأن الجيل سيقع تحت مُؤثِّرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسي بالجيل السابق .

إذن : بتوالي الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث في مواكب الرسل مَنْ يُنبّه الناس .

ومن هنا كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خَيْر أمة أُخرِجَتْ للناس : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . } [آل عمران : 110] لماذا؟ { تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله } [آل عمران : 110] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلّغ الرسول من عاصروه مَنْ أمته ، وعلى أمته أن تُبلّغ مَنْ بعده؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفي الحديث الشريف « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع » .

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولأهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسألة هامة في مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول :

« إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يؤتى الدين من ثغرة أحدكم » أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وتَرْصُد تصرفاته في مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعي هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

فأنت حارس على باب من الأبواب ، وعليك أنْ تسدَّه بصدق انطباعك عن الإيمان ، وبصدق انقيادك لقضايا الإسلام ، وبهذا السلوك تكون وسيلة إغراء للآخرين الذين يراودهم الايمان ، ويتراءى لهم منهج الله من بعيد .

ويحلو للبعض أن يأخذوا الإسلام بجريرة أهله ، ويحكموا عليه بناءً على تصرفات المنتسبين إليه ، وهذا خطأ ، فَمنْ أراد الصورة الحقيقية للإسلام فليأخذْها من منابع الدين في كتاب الله وسنة رسوله ، فإنْ رأيتَ بين المنتسبين للإسلام سارقاً فلا تقُلْ : هذا هو الإسلام؛ لأن الإسلام حرَّم

السرقة ، وجعل لها عقوبة وحَدّاً يُقَام على السارق ، وليس لأحد أن يكون حجة على دين الله .
لذلك فإن كبار العلماء والمفكرين الذين درسوا في الدين الإسلامي لم ينظروا إلى تصرُّفات المسلمين وحاضرهم ، بل أخذوه من منابعه الأصلية . ومنهم « جينو » الفرنسي الذي قال : الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه في الحقيقة لو اطلع على أحوالنا الآن لَكَان في المسألة كلام آخر .
إذن : الذين نظروا إلى قضايا الإسلام نظرة عَدْل وإنصاف لا بُدَّ أن يهتدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نظر إليه نظرة عَدْل وإنصاف إلا أنهم أبعدوا قضية التديّن من قلوبهم ، وإن اقتنعتْ بها عقولهم ، وفَرْق كبير بين القضية العقلية والقضية القلبية .
ومن هؤلاء الكاتب الذي ألَّفَ كتاباً عن العظماء في التاريخ وأسماه : « العظماء مائة أعظمهم محمد بن عبد الله » وهو كاتب غير مؤمن ، لكنه أخذ يستقرئ صفحة التاريخ ، ويسجِّل أصحاب الأعمال الجلية التي أثَّرت في تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة بينهم وجد أن أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك لم يتربَّ محمد في مدرسة ، ولم يتخرج في جامعة ، ولم يجلس إلى مُعلم .
ألم تسأل نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليّة؟ ولماذا استحق أن يكون في المقدمة؟ لقد ذكرتَ حيثيات النبوغ في جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة في جامعات وعلى أساتذة وإطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ في رسول الله؟ ألم تعلم أنه أُميّ في أمة أُميّة؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه القضية بعقله لا بقلبه .
نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب؛ لأنها أثارتْ خلافاً بين رجال القانون في موضوع إقامة حَدِّ الرجْم على الزاني المحصن والجَلْد للزاني غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزاني المحصَن سنة .

وهذا قول خاطئ وبعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنية الدليل وسُنية الحكم ، فسُنية الدليل أن يكون الأمر فَرْضاً ، لكن دليله من السنة كهذه المسألة التي معنا . وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهي فَرْض لكن دليلها من السنة ، أما سُنية الحكم فيكون الحكم نفسه سُنة يُثَاب فاعله ، ولا يُعَاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً في الركوع مثلاً .
إذن : فرجْم الزاني المحصَن فَرْض ، لكن دليله من السنة ، فالسُّنة هنا سُنية دليل ، لا سنية حكم .
فمَنْ يقول : إن الرجْم لم يَرِدْ به نصٌّ في كتاب الله ، تقول : الدليل عليه جاء في السنة ، وهي المصدر الثاني للتشريع ، حتى على قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففي القرآن : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7]

إذن : ففِعْل الرسول صلى الله عليه وسلم كنصِّ القرآن سواء بسواء ، وهل رجم في عهد رسول الله أو لم يرجم؟ رجم فعلاً في عهد رسول الله ، فإنْ قال قائل : فهذا ليس نصّاً في الرجْم . نقول : بل الفعل أقوى من النص قد تتأول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد في هذه الآية ، في قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : { فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب . . } [النساء : 25]

فيقولون : الرجْم لا يُنصَّف . إذن : ليس هناك رَجْم . نقول : أنتم لم تُفرّقوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلام لحيٍّ يشعر ويُحِسُّ بهذا الإيلام ، والمقصود به (الجَلْد) . إذن : { فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب . . } [النساء : 25] أي : من الجَلْد ، وهو الذي يُنصَّف ، ولو كان الحكم عاماً لَقَال : فعليهن نصف ما على المحصنات . فقوله : { مِنَ العذاب . . } [النساء : 25] دليل على وجود الرَّجْم الذي لا فَرْق فيه بين حُرة وأمة .

وكذلك نلحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك في قول سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حينما تفقّد الطير ، واكتشف غياب الهدهد : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ . . } [النمل : 21]

ولسائل أنْ يسأل : هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك أو العذاب قبل يوم القيامة؟

نعم لا بُدَّ أن يمسَّهم شيء من هذا؛ لأن الله تعالى لو أخَّر كل العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعمَّ الفساد في الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع في الحياة ، وينعم بها مع ظلمه لأغراهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ، ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولَعلِموا أن عاقبته وخيمة ، ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالوَيْل مِمَّنْ لا يؤمنون بها .

لذلك لما مات رَأْسٌ من رؤوس الظلم في الشام ، ولم يَرَ الناس أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم : إن وراء هذا الدار داراً يُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته؛ لأنه يستحيل أنْ يُفلِتَ الظالم من العذاب .

وفي مناقشتي مع الشيوعيين في بروكسل قلت لهم : لقد قسوتُمْ على المخالفين لكم من الرأسماليين والإقطاعيين عام 1917 وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قُلْت : منذ متى؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلتُ : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم؟ وما حظّهم من العقاب الذي أنزلتموه بإخوانهم؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أنْ تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإنْ أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصفّي معهم الحساب ، كما يقول تعالى : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ

ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . } [الطور : 47] وأريد منكم أنْ تطلعوا على تفسير هذه الآية التي نحن بصددها : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُوراً } [الإسراء : 58]

راجعوا تفسيرها في كتاب النسفي ، وسوف تجدون به أمثلة تُؤيّد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُمثِّل ما أصاب مصر منذ سنة 1952 ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويْلٌ لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس . اقرأوا هذا الكلام عند النسفي .

ثم يقول تعالى : { كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُوراً } [الإسراء : 58]

أي : مُسجّل ومُسطّر في اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : { كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُوراً } [الإسراء : 58] وتأتي الأحداث بغير ذلك ، بل لا بُدَّ أنْ يؤكد هذه الحقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . }

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59)

الآيات : جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبّر الأعلى سبحانه مثل المذكورة في قوله تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر . . } [فصلت : 37]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التي تثبت صِدْق الرسول في البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتي يسمونها حاملة الأحكام .

فالآيات إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن . فأيها المقصود في الآية : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات } [الإسراء : 59]

الآيات الكونية وهي موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات القرآنية وهي موجودة أيضاً ، بقي المعجزات وهي موجودة ، وقد جاءت معجزة كل نبي على حَسْب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذي نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم في الفصاحة والبلاغة والبيان؛ لأن العرب لم يُظهروا نبوغاً في غير هذا المجال ، فتحدّاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ في الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التي منعها الله عنهم؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت في قوله تعالى : { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ } [الإسراء : 90-93]

والمتأمل في كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعْد عن مجال المعجزة التي يُراد بها في المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا في أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض؟ وهل إسقاط السماء عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صدْق الرسول؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنزِل من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أن يُجبره على شيء ، قال تعالى : { قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . . } [يونس : 16]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجِزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : { وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا .

. } [الإسراء : 59]

مبصرة : أي آية بينة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التي طلبوها ، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها أي : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثمود هي التي منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً مِنَّا عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية { مُبْصِرَةً } لبيان وضوحها كما في قوله تعالى : { وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً . . } [الإسراء : 12] فهل آية النهار مُبصِرة ، أم مُبْصِر فيها؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشيء من شعاع ينطلق من عينة إلى الشيء المرئيّ فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبيّن أن الإنسان يرى الشيء إذا خرج من الشيء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشيء إذا كان في الضوء ، ولا تراه إذا كان

في ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هي المبصرة؛ لأن أشعتها هي التي تُسبّب الإبصار .

ثم يقول تعالى : { وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إِلاَّ تَخْوِيفاً } [الإسراء : 59]

أي : نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول صلى الله عليه وسلم اضطهده أهل مكة ودبَّروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيّب الله سَعْيهم ورأوا أنهم لو قتلوه لَطالبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به بليل ، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جَلْدٍ ، ويضربوه ضَرْبة رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر لِيُوقِعوا به ، وكان الله لهم بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يدبر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل ، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف في وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة في الإيمان والسير في ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتي لِرَدْع المكذبين عن كذبهم ، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذِّبين بالرسل ، حيث أخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء في قوله تعالى : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين ، كُلّ بما يناسبه .

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس . . . } .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)

أي : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب عن عِلْمِه تعالى ، لأن الإحاطة تعني الإلمام بالشيء من كُلّ ناحية .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول في المثل (حُط في بطنك بطيخة صيفي) ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبيتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفي (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم ، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم في نحورهم .

لذلك لما تحدَّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدَّى الجن أيضاً ، فقال : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

ظَهِيراً } [الإسراء : 88]

ففي هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة في أمر من الأمور له شيطان يُلهمه ، وكانوا يدَّعُون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى « وادي عبقر » في الجزيرة العربية ، فتحدّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التي تُلهمهم .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يحيط بالناس جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفيّ ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة في نفوس المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى في الكون ، وبهذه القيومية نردُّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه في الكون مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وهي التي تعمل في الكون ، وهي التي تُسيّره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هي التي تُسيِّر في الكون ما رأينا في الكون شذوذاً عن الناموس العام؛ لأن الأمر الميكانيكي لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التي تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التي أشعلوها لحرق نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام في أن ينجو إبراهيم من النار؟

لا . . لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكَّنهم الله من الإمساك به ، أو سخر سحابة تطفئ النار ، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهم آية من آياته في خَرْق الناموس ، فمكّنهم من إشعال النار ومكّنَهم من إبراهيم حتى ألقوْه في النار ، ورأَوْهُ في وسطها ، ولم يَعُدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتسلب النار خاصية الإحراق : { قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى .

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّي رسوله ويُؤْنِسه بمدد الله له دائماً ، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشِّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : { أَحَاطَ بالناس . . } [الإسراء : 60]

الإحاطة تقتضي العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بُدَّ من العلم مع القدرة؛ لأنك قد تعلم شيئاً ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه ، فالعلم وحده لا يكفي ، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعني أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقاتٍ متعددة ، فقد يراد بها الخلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما في قوله الحق تبارك وتعالى : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس * مَلِكِ الناس * إله الناس * مِن شَرِّ الوسواس الخناس * الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس * مِنَ الجنة والناس } [الناس : 1-6]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض ، كما في قوله تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ } [النساء : 54]

فالمراد بالناس هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عنه كفار مكة : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

وكما في قوله تعالى : { الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم . . } [آل عمران : 173] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس في الآية : { إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس . . } [الإسراء : 60] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فُيَراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر في مكة .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهي إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهي إحاطة حصار لا يُفلِتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس : 22]

أي : حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون } [الصافات : 171-172]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله صلى الله عليه وسلم إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون في أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار في وقت كل المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45]

حتى أن عمر رضي الله عنه الذي جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول : أيّ جَمْع هذا؟! ويتعجب ، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا وهذه تسلية لرسول الله وتبشير للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال في آية أخرى : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173]
فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فأنت في عناية فلن يصيبك شرٌّ من الخارج ، وهم في حصار لن يُفلِتوا منه .
ثم يقول تعالى : { وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ . . } [الإسراء : 60]
كلمة { الرؤيا } مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول : رأيتُ رُؤْيا ، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول : رأيتُ رؤية .
ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الذي رآه : { وَقَالَ ياأبت هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ } [يوسف : 100]
ولم يَقُلْ رؤيتي . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .
وقد اختلف العلماء : ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس؟
جمهرة العلماء على أنها الرؤيا التي ثبتتْ في أول السورة : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى } [الإسراء : 1] أي : حادثة الإسراء والمعراج .
وبعضهم رأى أنها الرُّؤْيا التي قال الله فيها : { لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرءيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً } [الفتح : 27]
فقد وعد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام ، ولكن مُنِعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم .
ثم بيّن الحق تبارك وتعالى لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة : { هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25]
إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا في الحديبية؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب؛ لأنهم لن يُميِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخول مكة رَغْماً عن أُنُوف أهلها .
لذلك كان من الطبيعي أنْ يتشكَّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل

المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألسنا على الحق؟ أليسوا هم على الباطل؟ ألستَ رسول الله؟ فيقول أبو بكر : الزم غَرْزَهِ يا عمر ، إنه رسول الله .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة أم المؤمنين في حَلِّ هذا الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنِعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه المسألة .
وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التي جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « » والله لكأني انظر إلى مصارع القوم « . وأخذ يومئ إلى الأرض وهو يقول : » هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان « » .
وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله صلى الله عليه وسلم فَقُلْ لي : بالله عليك ، مَنِ الذي يستطيع أنْ يتحكَّم في معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال لِيُحدد الأماكن التي سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .
لكن أهل التحقيق من العلماء قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان في الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر ، هذه أحداث حدثتْ في المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول وهو الإسراء والمعراج هو الصواب .
وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى الرؤيا المنامية؟ وكيف يعطي الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً؟
نقول : ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية؟ إنها في لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذي فرح بصيد ثمين عنَّ له :
فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وهَاش فُؤَادُهُ ... وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا
أي : قال الله اكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .
لكن الحق سبحانه اختار كلمة (رُّؤيَا) ليدل على أنها شيء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شيء لا يحدث إلا في المنام . وهذا من دِقّة الأداء القرآني ، فالذي يتكلم رَبّ ، فاختار الرؤيا؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس في ليلة .
فَوَجْه الإعجاز هنا ليس في حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب

إليها في رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجْه الإعجاز في الزمن الذي اختُصِر لرسول الله ، فذهب وعاد في ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لنا بيت المقدس » .

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن : فاعتراضهم على وقت هذه الرحلة التي كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، ويخبر محمد أنه أتاها في ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث في هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصّل العلماء الباحثون في مسألة وعي الإنسان أثناء نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا : إن الذهن الإنساني لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هي المدّة التي يستغرقها المنام .

في حين إذا أردتَ أن تحكي ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً . فأين الزمن إذن في الرؤيا المنامية؟ ولا وجود له؛ لأن وسائل الإدراك في الإنسان والتي تُشعِره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ، حتى إذا جاءت الرؤيا مرَّتْ سريعة حيث لا يوجد في الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشي على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان يفهمها وهي طايرة) وهذا يدل على السرعة في الفعل؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشيء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس؟ وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أنني ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواي ، ثم إلى اليابان ، أنُكذِّبه؟!

إذن : قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَّلَتْ المعنى من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكأن الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعي أنك أتيتها في ليلة؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم في بوتقة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى في ساحتنا إلا صادق الإيمان قويُّ العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذي سيحكم حركة الحياة في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق في إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التي ميَّزَتْ بين أصالة الصِّدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إنْ كان قال فقد صدق » هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت

الزَّبَد الذي زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : { والشجرة الملعونة فِي القرآن } [الإسراء : 60]

أي : وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنةً للناس أيضاً ، وإنْ كانت الفتنة في الإسراء كامنَة في زمن حدوثه ، فهي في الشجرة كامنة في أنها تخرج في أصل الجحيم ، في قَعْر جهنم ، ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والري ، فكيف تكون الشجرة في جهنم؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن في الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول ، والنار تحرق كل شيء حتى الحجارة؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصِر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كوني في أصل الجحيم ، فتكون في أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التي قالت للنار : كُوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزَّبْعَري حينما سمع قوله تعالى : { أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم } [الصافات : 62-64]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر ، فقوموا تزقَّموا معي ، أي : استهزاءً بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله صلى الله عليه وسلم .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلِّغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعْنصِر أن يكون؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هي قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن ، وهي آية ومعجزة لله تعالى ، وهي دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذي يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء؟ كيف تُلْعَن ، وهي الطعام الذي سيأكله الكافر ويتعذب به؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون آكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : { إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم } [الدخان : 43-44] والأثيم لا شَكَّ معلون .

لكن ، لماذا لم يجعل المعلونية للآكل وجعلها للشجرة؟

قالوا : لأن العربي دَرَجَ على أن كل شيء ضار ملعون ، أي : مُبْعَد من رحمة الله ، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذي يلعنها ، فهي ملعونة من آكلها . وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون آكلها .

من الإشكالات التي أثارتها هذه الآية في العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتوزّكوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين } [الصافات : 65]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتي عادةً لِيُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما في الآية فالمشبَّه مجهول لنا؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد مِنّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها ، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذي جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربّي فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث في أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

وللردِّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم المَلَكَة العربية أو التذوّق الكافي لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كمَلَكَة واللغة كصناعة فقط .

المَلَكة اللغوية تفاعل واختمار للغة في الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربي يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة خاصة على كِبَر فهي مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربي قبل نزول القرآن قال :

يَغُطُّ غَطِيطَ البكْر شُدّ خِنَاقُه ... لِيقتُلَنِي والمرْءُ ليسَ بقتَّالِ

أَيقتُلِني وَالمشْرفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمسْنُونَةٍ زُرْقٍ كأنْيَابِ أَغْوَالِ

فهل رأيتم الغول؟ وهل له وجود أصلاً؟ لكن الشاعر العربي استساغ أن يُشبّه سلاحه المسنون بأنياب الغول؛ لأن الغول يتصوَّره الناس في صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد أن الناس تتخيله في صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلّفنا جميع رسّامي الكاريكاتير في العالم برسم صورة مُتخيّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف عن الآخر؛ لأن كلاً منهم سيتصوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبَّه طَلْع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا لَتصوّرناه على وجه واحد ، لكن

الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعته ، وأنْ تذهب النفس في تصوُّره بشاعته كل مذهب ، وهكذا يؤدي هذا التشبيه في الآية مَا لا يُؤديّه غيره ، ويُحدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدِثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجليّ .

ثم يقول تعالى : { وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً } [الإسراء : 60]

أي : نُخوّفهم بأنْ يتعرّضوا للعقوبات التي تعرّض لها المكذِّبون للرسل ، فالرسل نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخُذْلان . وأنت حينما تُخوّف إنساناً أو تُحذره من شر سيقع له ، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً ، كالولد الذي يُخوِّف ابنه عاقبة الإهمال ، ويُذكّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : { وَنُخَوِّفُهُمْ . . } [الإسراء : 60] التخويف هنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبشّع لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة في قوله تعالى ، في سورة الرحمن :

{ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35-36]

فجعل النار والشُّوَاظ هنا نعمة؛ لأنها إعلام بشيء سيحدث في المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

وقوله تعالى : { فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً } [الإسراء : 60]

أي : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعني : لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم في الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوِّي بين السادة والعبيد؟!

إذن : كلما خوَّفْتهم وذكّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذي سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التي يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتي الرسل لهدم هذه السلطة ، وجَعْل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبيٍّ ملِكاً عليهم ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أُبيٍّ ، وتوجهت الأنظار إليه صلى الله عليه وسلم ، وطبيعي إذن أن يغضب ابن أُبيٍّ ، وأن يزدادَ كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ، وأنْ يحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنّة من سُنَن المعاندين للحق والكائدين للخير دائماً ، فقال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ . . . } .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61)

أي : تذكّروا أن الحسد قديم قِدَم وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهي مسألة قديمة ومستمرة في البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا الله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود؛ لأنه بأمر الله الذي يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً في دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . } [الرعد : 11]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون في خدمته؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعة وخضوع لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : { إَلاَّ إِبْلِيسَ . . } [الإسراء : 61]

فهِم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التي تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم في موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال : { فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ . . } [الإسراء : 61]

وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، سوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون في قَوْل الحق سبحانه في القرآن الذي أخذوا منه حجتهم : { فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . } [الكهف : 50]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح في أنه من الجن ، فإنْ قال قائل : كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد؟

نقول : إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصي ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة الذي يزهو عليهم ويتباهى بأنه صالح للاختيار في العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح في منزلة أعلى من الملائكة وأصبح في حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى في الطاعة فإن الأعلى أَوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التي أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة { أبى } ومرة أخرى { استكبر } ومرة { أبى واستكبر } ، وكذلك قوله مرة : { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . } [ص : 75] ومرة أخرى يقول : { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ . . } [الأعراف : 12]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء في فَهْم أساليب العربية؛ لأنها ليستْ لديهم ملَكَة ، والمتأمل في هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآني ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . } [ص : 75] و { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ . . } [الأعراف : 12]

صحيح أن في الأولى إثباتاً وفي الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول : إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) في الآية الثانية زائدة ، فالأصل { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . } [ص : 75]

والقول بوجود حروف زائدة في كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزّه المتكلم سبحانه أن يكون في كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هي تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . } [ص : 75] كأنه همَّ أن يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه عن السجود ، لأنه لا يقال : ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أيّ شيء سيمنعك؟

أما و { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ . . } [الأعراف : 12] تعني : ما منعك بإقناعك بأن لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن في حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . . } [الإسراء : 61]

والهمزة للاستفهام الذي يحمل معنى الاعتراض أو الاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : { أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [الأعراف : 12] فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف في عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق الطين ، أو خير منه؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة في الكون؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من الأذن مثلاً؟ أم أن لكل منهما مهمتها التي لا تؤديها الأخرى؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي توقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطئ .

ومعنى : { خَلَقْتَ طِيناً } [الإسراء : 61] يعني : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . } [الحجر : 29]

سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء . ومرة : من التراب . ومرة : من الطين . والماء إذا خُلِط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف في صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشّ ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطَن ، ثم يصبُّونه في قوالب . فإذا ما تُرِك الطين حتى يجفّ ، ويتحول إلى الصلابة يصير صَلْصَالاً كالفخَّار ، يعني يُحدث رنّة إذا طرقت عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29]

إذن : لا وَجْه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان مرة أنه : من : ماء ، أو من

تراب ، أو طين ، أو حمأ مسنون ، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ . . } .

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62)

{ قَالَ } أي : إبليس { أَرَأَيْتَكَ } الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما في الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك . والمعنى : أخبرني ، لأن رأي البصرية تُطلق في القرآن على معنى العلم؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شكَّ فيه .
لذلك قالوا : (ليس مع العين أَيْن) فما تراه أمامك عياناً ، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرؤية؛ لأنها تعطي علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً ، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .
وقد ورد هذا المعنى في قَوْله الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1]
واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الفيل وليداً لم يَرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « تَرَ » كأنه يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فاجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .
فقوله تعالى : { أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ . . } [الإسراء : 62] أي : أعلمني ، لماذا فضلته عليَّ ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذي توجه به لربّه عَزَّ وجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول : { لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 62]
وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب .
ومعنى : { أَخَّرْتَنِ } أخَّرت أجلي عن موعده ، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنّ أجلاً معلوماً ، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله ، وهذه مبالغة منه في اللدد والعناد ، فلم يتوعدهم ويُهدّدهم مدة حياته هو ، بل إلى يوم القيامة ، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً .
فالعداوة بين إبليس وآدم ، فما ذنب ذريته من بعده؟ لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد ، وهذه العداوة على آدم ، ثم يوصي ذريته بحمل هذا العداء من بعده ، إنه الغيظ الدفين الذي يملأ قلبه .
وقد أمهله الحق سبحانه بقوله : { إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ } [الأعراف : 15]
ومعنى : { لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ } [الإسراء : 62] اللام للقسم ، كما أقسم في آية أخرى : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82]

وعجيب أمر إبليس ، يقسم بالله وهو يعلم أن العمر والأجل بيده سبحانه ، فيسأله أن يُؤخّره ، ومع ذلك لا يطيع أمره .

والاحتناك : يَرِد بمعنيين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أي : أتى عليه كله واستأصله ، والآخر : بمعنى القهر على التصرف ، مأخوذ من اللجام الذي يُوضَع في حنَك الفرس ، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقِفه ، فهي أداة التحكّم فيه ، والسيطرة عليه قَهْراً .

فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات ، وقد يكون قهراً لحركتها .

وقوله سبحانه : { إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 62] فيها دليل على عِلْم إبليس ومعرفته بقدرة الله تعالى ، فعرف كيف يقسم به حين قال : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82] والمعنى : بعزتك عن خَلْقك : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .

سأدخل من هذا الباب ، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لي بهم ، وليس لي عليهم سلطان ، لقد تذكر قدرة الله ، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذَه ، فقال : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 83]

فقوله : { إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 62] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم ، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً } .

قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63)

قوله تعالى { اذهب } أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . { فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ . } [الإسراء : 63] أي : الذين اتبعوك وساروا في ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : { جَزَآؤُكُمْ } . ولم يقل (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل في حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم ، وكذلك هو المخاطب في الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفّذ أوامر الله الواردة في قوله تعالى : { واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً } [الإسراء : 64]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذي يُراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذي لا يُراد منه التنفيذ . فالأول طَلَب أعلى من أَدْنى لكي يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوبٍ عادةً من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتمّ ولا يستجيب فتقول له :

العب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر؟! وهل لو أخفق الولد في الامتحان سيأتي ليقول لك : يا والدي لقد قلت لي العب؟!

إن الأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره ، بل يُراد منه التهديد ، كما يقولون في المثل (أعلى ما في خَيْلك اركبه) .

وقوله : { جَزَاءً مَّوْفُوراً } أي : وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس : { واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ . . . } .

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64)

فقوله تعالى : { واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ } [الإسراء : 64]

هذا كما تستنهض ولدك الذي تكاسل ، وتقول له : فِزّ يعني انهض ، وقُمْ من الأرض التي تلازمها كأنها مُمسكة بك ، وكما في قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض . . } [التوبة : 38]

فتقول للمتثاقل عن القيام : فِزّ أي : قُمْ وخِفّ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفزز مَنِ استطعت واستخفّهم واخدعهم { بِصَوْتِكَ } بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس الذين يعاونوك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . } [الإسراء : 64]

أجْلَبَ عليهم : صاح به ، وأجلبَ على الجواد : صاح به راكبه ليسرع والجَلْبة هي : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبه الجَلْبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فيسل عليك التغلّب عليه .

وقوله تعالى : { بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . } [الإسراء : 64]

أي : صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم ، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان ، كما في الحديث النبوي الشريف : « يا خيل الله اركبي » .

وما أشبه هذا بما كنا نُسمّيهم : سلاح الفرسان { وَرَجِلِكَ } من قولهم : جاء راجلاً . يعني : ماشياً على رِجْلَيْه و (رَجِل) يعني على سبيل الاستمرار ، وكأن هذا عمله وديدنه ، فهي تدل على الصفة الملازمة ، تقول : فلانٌ رَجْل أي : دائماً يسير مُترجّلاً . مثل : حاذر وحَذِرْ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : { وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال . . } [الإسراء : 64] فكيف يشاركهم أموالهم؟ بأن يُزيّن لهم المال الحرام ، فيكتسبوا من الحرام وينفقوا في الحرام (والأولاد) المفروض في الأولاد طهارة الأنساب ، فدَوْر الشيطان أنْ يُفْسِدَ على الناس أنسابهم ، ويُزيّن لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام . أو : يُزيّن لهم تهويد الأولاد ، أو تنصيرهم ، أو يُغريهم بقتْلِ الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد .

وقوله تعالى { وَعِدْهُمْ } أي : مَنيّهم بأمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : { الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء والله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 268]

وقوله : { وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً } [الإسراء : 64] أي : لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغِرّة والغفلة ، ومنها الغرور : أي يُزيّن لك الباطل في صورة الحق فيقولون : غَرَّهُ . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوّر لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره ، وعلى غَفْلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . . } [القصص : 60] { أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام : 50] { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ . . } [النساء : 82] وينادينا بقوله : { ياأولي الألباب } [الطلاق : 10]

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمرّروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أن يطلب الله مِنَّا ذلك؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبُّر في كل شيء؟

لا شكَّ أن الذي يُوقِظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى النظر والتدبر واثق من حُسْن بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذي يبيع الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعة في ثقة ، ويدعوك إلى فحصها ، وقد يشعل النار لِيُريك جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر .

وهكذا الشيطان لا يُمنّيك ولا يُزيّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ، إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتصحباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً ، ومن حيله أن يُزيّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها فرصة للمتعة فانتهزها وَخذْ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن تُصدّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصدّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع

ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإنْ كان يوم القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال : { إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : 22]
إذن : في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ، استفزز ، وأَجْلب ، وشاركهم ، وعِدْهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها ، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة ، أو صَدّ الناس عنها ، وكأن الحق سبحانه يقول له : إفعل ما تريد ودبِّر ما تشاء ، فلن توقِف دعوة الله؛ لذلك قال بعدها : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . } .

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ، وقلنا كلاماً نُوجزه في أن العبيد هم المقهورون للسيد في الأمور القَسْرية القهرية ، ومتمردون عليه في الأمور الاختيارية ، أما العباد فهم مقهورون في الأمور القسرية القهرية ، وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم في الأمور الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أنْ يكونوا مقهورين لله في جميع أحوالهم .
وقد تحدّث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما في قوله تعالى : { وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً * وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً } [الفرقان : 63-65] .
فعباد الله الذين هم أصفياؤه وأحباؤه الذين خرجوا من مرادهم لمراده ، وفَضلّوا أن يكونوا مقهورين لربهم حتى في الاختيار ، فاستحقوا هذه الحصانة الإلهية في مواجهة كيد الشيطان ووسوسته وغروره : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . } [الإسراء : 65] .
وسبق أنْ تحدَّثنا عن كَيْد الشيطان الذي قال الله عنه : { إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً } [النساء : 76] ففي مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الذين أغواهم وأضلّهم ، سيقول : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي . . . } [إبراهيم : 22] فليس لي سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنِعكم بها .
ثم يقول تعالى : { وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً } [الإسراء : 65] .
الوكيل هو المؤيّد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً . أي : وثقت به ليؤدي لي كل ما أريد ، فإنْ كان في البشر مَنْ تثق به ، وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومؤيّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .
ثم يقول الحق سبحانه : { رَّبُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الفلك . . . } .

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66)

الربّ هو المتولّي تربيتك : خَلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر { يُزْجِي } الإزجاء : الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و { الفلك } هي السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكّر والمؤنث .

ومنها قوله تعالى : { والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس } [البقرة : 164]

ومنها قوله تعالى : { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . . } [يونس : 22]

ثم يقول تعالى : { لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . } [الإسراء : 66]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : { وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . } [النحل : 14]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت ، ومُسْتودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى؛ لذلك قال بعدها : { إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } [الإسراء : 66]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله ، فالذي أعطاكم البَرَّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التي نعيش عليها إما بَرَّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس ، فالباقي بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير .

وطُرُق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي أو تركب ، وكُلُّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شيء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحي من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قِبله ، بدليل قوله تعالى : { وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38] .

فلم يكُنْ للناس عهد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دَلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له عِلْم بهذه المسألة ، فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبي من أنبيائه إلى مركب من المراكب التي تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مر العصور ، فبعد أن كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يسمى بالقلع ، والذي يتحكم في المركب من خلاله ، ويستطيع الربان الماهر تسفيح القلع ، يعني توجيهه إلى الناحية التي يريدها .

فكان الريح هو الأصل في سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمي الذي اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مَرَّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتي تشبه فعلاً الجبال ، مِصْداقاً لقوله الحق سبحانه وتعالى :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام } [الشورى : 32]

يعني : كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على عِلْمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقيّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال ، وإلاّ ففي زمن نزول القرآن لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه ، إنما لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذي تُبْنَى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم في مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هي التي تُسيِّر هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب أَلاّ يغترّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمام الأمور في الكون؛ لأن الحق سبحانه يقول : { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ } [الشورى : 33]

والريح هي الأصل في تسيير السفن .

فإنْ قال قائل الآن : إنْ توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرتَ إلى كلمة الريح ، وماذا تعني لوجدتَ أن معنى الريح القوة المطلقة أيّاً كان نوعها ، بدليل قَوْل الحق سبحانه وتعالى : { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . } [الأنفال : 46] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : { يُسْكِنِ الريح . . } [الشورى : 33] يُسكِن القوة المحرّكة للسفن أيّاً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإنْ شاء سبحانه تعطَّلَتْ كُلُّ هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . } .

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67)

البحر هو المزنق والضائقة التي لا يستطيع الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء ، فالبر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . } [يونس : 22]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحِيَل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله المنفذ الحقيقي والمفرّج للكَرْب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل في النجاة .

فقوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 67] أي : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالي ، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقِذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار في هذا الموقف يَصْدُقون مع أنفسهم ، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها ، فإنْ آمنوا بآلهة أخرى وإنْ عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم في هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله ، ولا يدعون إلا الله؛ لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة .

قوله تعالى : { ضَلَّ مَن تَدْعُونَ . . } [الإسراء : 67] أي : ذهب عن بالكم مَن اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خاطركم ، فلن يقولوا هنا يا هبل؛ لأنهم لن يغشُّوا أنفسهم ، ولن ينساقوا وراء كذبهم في هذا الوقت العصيب .

إنهم في هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطرَ لهم ببال أبداً؛ لأن مجرد تذكّرهم يُضعِف ثقتهم في الله الذي يملك وحده النجاة ، والذي يطلبون منه المعونة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدّعي العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إنْ خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإنْ كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإنْ أحاطتْ به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكروب وإغاثة الملهوف ، حتى وإنْ كان كافراً؛ لأنه سبحانه هو الذي أمره أنْ يلجأ إليه ، وأنْ يدعوه ، فقال : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . } [الأنعام : 43] فإنْ دَعَوهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم؛ لأنهم عباده وخَلْقه وصَنْعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمَنْ كفر به!

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب إئذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إئذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إئذن لي أن أَخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إئذن لي أن أُغرِقَ ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وما خلقت ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنهم عبادي ، فإنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوه غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأنْ يقفوا في وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه ربٌّ ، وما دام رباً فهو رحيم ، فتضرعوا إليه ودَعَوْهُ ، فلمّا نجّاهم إلى البر أعرضوا ، وعادوا لما كانوا عليه وتنكّروا للجميل والمعروف؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { وَكَانَ الإنسان

كَفُوراً } [الإسراء : 67]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أي : كثير الكفر للنعمة ، ولَيْتَه كفر بنعمة الخلق فقال : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة ، إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مأزقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نجَّاه الله أعرض وتمرَّد ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً . . . } .

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68)

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نجَّاهم في البحر أأَمِنُوا مكْر الله في البر؟ وهل الخطر في البحر فقط؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنزِل بهم في البر مثل ما أنزل بهم في البحر؟

يقول تعالى : { أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر . . } [الإسراء : 68]

كما قال تعالى في شأن قارون : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . } [القصص : 81] ولستم ببعدين عن هذا إنْ أراده الله لكم ، وإنْ كنا نقول « البر أمان » فهذا فيما بيننا وبين بعضنا ، أما إنْ جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

وقوله تعالى : { أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً . . } [الإسراء : 68] أي : ريحاً تحمل الحصباء ، وترجمكم بها رَجْماً ، والحصباء الحصى الصغار ، وهي لَوْن من ألوان العذاب الذي لا يُدفَع ولا يُرَدّ؛ لذلك قال بعدها : { ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً } [الإسراء : 68]

أي : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدفع عنكم . إذن : لا تظنوا أن البر أمان لا خطر فيه . . لا ، بل خطري موجود غير بعيد منكم ، سواء أكنتم في البحر أو في البر .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أخرى . . . } .

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)

أي : وإنْ نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن في البر؛ لأنه قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه في البر ، أو يُعيدكم في البحر مرة أخرى ، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْب في المرة الأولى ، فالمعنى : أنجوتُمْ فأمنتُم .

وقوله تعالى : { فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الريح . . } [الإسراء : 69]

القاصف : هو الذي يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا في اليابس { فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ . . . } [الإسراء : 69] أي : بسبب كفركم بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم في البحر فأعرضتم وتمردتم ، في حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتُقِرُّوا له بالفضل .

ثم يقول تعالى : { ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً } [الإسراء : 69]
عندنا تابع وتبيع ، التابع : هو الذي يتبعك لعمل شيء فيك ، أما التبيع : فهو الذي يُوالِي تتبعك ، ويبحث عنك لأَخْذ ثأره منك . فالمعنى : إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم ، إذن : لا أملَ لكم في ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .
وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم ، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا ضربتُ فلاناً فسيأتي أهله ويفعلون بي كذا وكذا ، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحدَ يستطيع ردّاً على انتقامه أو عذابه .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر . . . } .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)

وهل هناك تكريم لبني آدم أعظم من أنْ يُعدّ لهم مُقوّمات حياتهم قبل أنْ يخلقهم؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء { هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً . . } [البقرة : 29]
إذن : فكل ما في الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجَدوا؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم ، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يَقُلْ الحق سبحانه : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . } [الرعد : 11]
وقال تعالى : { فالمدبرات أَمْراً } [النازعات : 5]
فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْي منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفه تأمُّل وتفكُّر؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون ، وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبْدعاً ، يكفي أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمني ، وليس له قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتي ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطيني وتُمدّني دون قدرة لي عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنِ الذي أعدّ لي كلَّ هذه الأشياء التي ما ادَّعاهَا أحد لنفسه؟
فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذي خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أنْ تُرهِفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذي حيّركم .
وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذي انقطعتْ به السُّبل في الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب ، أليس حَرياً به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتتْه؟

إذن : كان على الإنسان أن يُعمل عقله وفِكْره في معطيات الكون التي تخدمه وتسخر من أجله ، وهي لا تأتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

ولقد اختلف العلماء في بيان أَوْجُه التكريم في الإنسان ، فمنهم مَنْ قال : كُرّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرّمَ بالاختيار ، ومنهم مَنْ قال : كُرّمَ الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا منحنياً إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرّمَ بشكل الأصابع وتناسقها في شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة في تناول الأشياء ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم مَلْحظ في التكريم .

ولنا في مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أودُّ أنْ يلتفت إليه العلماء ، أَلاَ وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : { ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص : 75]

وقال : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبنا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ . . . } .

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71)

أي : يوم القيامة ، والداعي هو المنادي ، والناس هم المدعوون ، والنداء على الناس في هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادي القوم بإمامهم أي : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصّل هذا الإجمال ، فتُنادى كل جماعة بمَنْ بلَّغهم وهداهم ودَلَّهم ليُغري الناس بنقل الفضل العلمي من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال بعضهم { بِإِمَامِهِمْ } أي : بأمهاتهم ، وفي دعاء الناس بأمهاتهم في هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وسَتْر على أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفضحوا على رؤوس الأشهاد في مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فأولئك يَقْرَؤونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } [الإسراء : 71]

فكوْنه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : { هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ } [الحاقة : 19] إنه مسرور بعمله الصالح الذي يحب أنْ يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : { وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } [الإسراء : 71]

الظلم أنْ تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص في شيء تريد أنْ تحصل عليه

ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخَلْق؟! إن الخلق يتصفون بالظلم؛ لأن الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله له؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغني عن الخَلْق ، فكيف يظلمهم؟ وهم جميعاً بما يملكون هِبة منه سبحانه .

ومعنى { فَتِيلاً ۝ } عادةً يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضّل والعَلف لماشيتهم ، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل ، وهي ثلاثة أشياء تجدها في نواة الثمرة ، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل .

فالنقير : هو تجويف صغير في ظهر النواة مثل النقطة .

والقطمير : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النواة .

فمعنى : { وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } [الإسراء : 71] أي : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم مهما تناهى في الصِّغَر .

وفي مقابل مَنْ أوتي كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتي كتابه بشماله ، كما جاء في قوله تعالى : { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ياليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ } [الحاقة : 25]

وفي آية أخرى قال : { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ } [الانشقاق : 10]

أما هنا فقال الحق سبحانه : { وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى . . . } .

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه؛ لأنه عميتْ بصيرته في الدنيا فعمى في الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شَكَّ أنه من أهل الشمال ، فالآيات ذكرتْ مرة السبب ، وذكرتْ مرة المسبّب ، ليلتقي السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغي .

فكأن الحق سبحانه قال : إن مَنْ أُوتِي كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى في دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

أما مَنْ أوتي كتابه بشماله فقد كان أعمى في الدنيا عمى بصيرة لا عمى بصر؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائي ، والكافرون في الدنيا كانوا مُبصرين للمرائي من حولهم . مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً ، ولا تهتدي إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكي يسير في رحلة الحياة على هدى لا بُدَّ له من بصر يرى به المرائي المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذي لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التي يكتسبها الإنسان

من منهج الله الذي آمن به وسار على هَدْيه .

وقوله : { فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلا } [الإسراء : 72]

إنْ كان عماه في الدنيا عمى بصيرة ، فَعَماه في الآخرة عمى بصر؛ لأن البصيرة مطلوبة منه في الدنيا فقط؛ لأن بها سيُعرف الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ، إذن : العمى في الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى في آية أخرى : { فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى } [طه : 123-124]

وقال عنهم في آية أخرى : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّا . . } [الإسراء : 97]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية في الآخرة ، مثل قوله تعالى : { حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ . . } [مريم : 75]

وقوله تعالى : { وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا . . } [الكهف : 53]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة في مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم في هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم في كَرْب وحَيْرة لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمي البصري عندهم .

أما الحالة الثانية وهي الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حَادّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظَ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففي قوله تعالى : { وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } [الإسراء : 72]

فلفظ { أعمى } واحد ، لكن في الآخرة قال { وَأَضَلُّ سَبِيلاً } إذن : لا بُدَّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خَيْر من هذا فقد فضَّلتَ الأول في الخيرية عن الثاني ، إذن : كلمة خير إما أنْ تأتي وَصْفاً ، وإما أن تأتي تفضيلاً .

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خَيْرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير » .

فالمراد أن المؤمن القوي أكثر في الخيرية . إذن : فكلمة : { فَهُوَ فِي الآخرة أعمى . . } [الإسراء : 72] ليست وَصْفاً ، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا ، أي أنه في الآخرة أشدّ عمىً .

وقوله تعالى : { وَأَضَلُّ سَبِيلاً } [الإسراء : 72] ومعلوم أنه كان ضالاً في الدنيا ، فكيف يكون أضلَّ في الآخرة؟

قالوا : لأن ضلاله في الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السَّويّ ، أما في الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلالهُ في الآخرة أشدّ وأعظمُ من ضلاله في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ . . . } .

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73)

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يحاولون جادّين أنْ يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا أي : ثقيف كما حرمت مكة . ومرة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

ومعنى { كَادُواْ } أي قاربوا ، والمقاربة غير الفعل ، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له ، لكنه لم يحدث ، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذي أُنزِل إليك لكن لم يحدث؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد ، فهي تحوي حول فتنتك عن الدين ، كما قالوا مثلاً : نعبد إلهك سنة ، و تعبد آلهتنا سنة .

ومعنى : { لَيَفْتِنُونَكَ } ليُحوّلونك ويَصْرِفونك عما أنزل الله إليك ، لماذا؟ { لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ . } [الإسراء : 73] كما حكى القرآن عنهم في آية أخرى : { ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ . . } [يونس : 15]

فيكون الجواب من الحق سبحانه : { قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [يونس : 15]

وقال تعالى : { قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16]

ونلاحظ في مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن رسوله ، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى ، لكي لا تكون عداوة بين محمد وقومه ، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله ، يقول تعالى : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33]

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصَدَّق عندهم ، لكن المسألة عندي أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى : { وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } [الإسراء : 73]

الخليل : هو المخالّ الذي بينك وبينه حُبٌّ ومودّة ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى في إبراهيم : { واتخذ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } [النساء : 125]

ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ ... خَليليْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِتَابَا

كأنَّ خَلِيلاً فِي خِلاَلِ خَلِيلِه ... تَسَرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وَغَابَا

فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما في صاحبه أو تخلَّله ودخل فيه .

فالمعنى : لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذي جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذي جعلهم في حالة عداء لك هو منهج الله جئتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذي أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : { وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً } .

وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)

{ وَلَوْلاَ } أداة شرط إن دخلت على الجملة الاسمية ، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط ، ويسمونها حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد .

فإنْ دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما في قوله تعالى : { لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ . . } [النور : 13]

و (لولا) في الآية دخلتْ على جملة اسمية؛ لأن (أن) بعدها مصدرية ، فالمعنى : لولا تثبتنا لك لقاربتَ أن تركنَ إليهم شيئاً قليلاً .

والمتأمل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات ، فلم تقُلْ : لولا تثبتنا لك لَركنتَ إليهم ، لا ، بل لَقاربتَ أنْ تركنَ فمنعتْ مجرد المقاربة ، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير مُتصوّر من رسول الله ، ومع ذلك أكّد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله : { شَيْئاً قَلِيلاً } [الإسراء : 74] أي : ركوناً قليلاً .

مما يدلُّ على أن طبيعته صلى الله عليه وسلم حتى دون الوحي من الله طبيعة سليمة بفطرتها ، فلو تصوَّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أنْ يركنَ إليهم شيئاً قليلاً ، وقلنا : إن المقارنة تعني مشروعَ فِعْل ، لكنه لم يحدث ، مِمّا يدلُّ على أن لرسول الله ذاتية مستقلة .

ومعنى { ثَبَّتْنَاكَ . . } [الإسراء : 74] التثبيت هو منع المثبَّت أنْ يتأرجح ، لذلك نقول

للمتحرك : اثبت .

ومعنى : { تَرْكَنُ } من ركون الإنسان إلى شيء يعتصم به ويحتمي ، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم ، وإذا احتمى الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مَثلاً فقد حَمَى ظهره فقط ، وأمن أنْ يأتيه أحد من ورائه ، فإنْ أراد أنْ يحميَ جميع جهاته الأربع ، فعليه أن يلجأ إلى رُكْن وأنْ يسند ظهره إلى الركن فيأمن من أمامه ، ويحتمي بجدار عن يمينه وجدار عن شماله . إذن : الركون أن تذهب إلى حِرْز يمنعك من جميع جهاتك .

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه : { لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود : 80] أي : أحتمي به وألجأ إليه .

والحق سبحانه في هذه الآيات يريد أنْ يستلَّ السخيمةَ على محمد صلى الله عليه وسلم من قلوب أعدائه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم ، وقد كان يشقُّ على نفسه ويُحمّلها ما لا يطيق في سبيل هذه الغاية ، ومن ذلك ما حدث من تَرْكه عبد الله بن أم مكتوم الذي جاءه سائلاً ، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شقَّ على نفسه .

وكأن الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يقول : يا قوم إنْ لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه الانصراف عَمَّا أُنزِل إليه من ربه ، فاعذروه؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني ، ولا ذنب لمحمد فيما خالفكم فيه ، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأ ما ، فأردت أنْ تتحمل عنه المسئولية ، فقلت : أنا الذي كلفتُه بهذا وأمرتُه به ، فالأمر عندي وليس للخادم ذنب فيما فعل .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات . . . } .

إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)

{ إِذاً } أي : لو كِدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات ، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكُرْه من صدور القوم لمحمد ، وينقلها له سبحانه وتعالى .

ومعنى { ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات . . } [الإسراء : 75] الضعْف : مضاعفة الشيء مرة أخرى . أي : قَدْر الشيء مرتين ، ولا يُذاق في الحياة إلا العذاب ، فالمراد : لأذقناك ضِعْف عذاب الحياة وضِعْف عذاب الممات ، لكن لماذا يُضَاعَف العذاب في حَقِّ محمد صلى الله عليه وسلم ؟

قالوا : لأنه أُسْوة كبيرة وقُدْوة يقتدي الناس بها ، ويستحيل في حقِّه هذا الفعل ، ولا يتصور منه صلى الله عليه وسلم ، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعَف له العذاب ، كما قال تعالى في نساء النبي : { يانسآء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب

ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً } [الأحزاب : 30]
ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين ، وهنَّ أُسْوة لغيرهنّ من نساء المسلمين ، وكلما ارتفع مقام الإنسان في مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أنْ يتبرأ عن الشبهة؛ لأنه سيكون أُسْوة فعل ، فإنْ ضَلَّ فلن يضل في ذاته فقط ، بل سيضل معه غيره ، ومن هنا شدَّد الله العقوبة وضاعفها للنبي ولزوجاته .
وقد اختار الحق سبحانه لفظ { لأذَقْنَاكَ } ؛ لأن الإذاقة من الذَّوْق ، وهو أعمّ الملكَات شُيوعاً في النفس ، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك ، لكن المذاق تشترك فيه كل الملكات .

ثم يقول تعالى : { ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } [الإسراء : 75]
أي : لا تجد مدافعاً يدافع عنك؛ أو ناصراً ينصرك؛ لأن مددَك مني وحدي ، فكيف يكون لك ناصر من دوني؟
ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا } .

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76)

وهنا أيضاً قوله تعالى { كَادُواْ } أي : قاربوا ، فهم لا يجرؤون على الفعل ، ولا يستطيعون ، فالأمر مجرد القُرْب من الفعل ، فإنهم سيحاولون إخراجك ، لكنك لن تخرج إلا بأمري وتقديري .
وقوله تعالى : { لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض . . } [الإسراء : 76] من استفزَّه أي : طلب منه النهوض والخِفّة إلى الفِعْل ، كما تقول لولدك المتثاقل : (فِز) أي : قُمْ وانهض ، والمراد : يستحثونك على الخروج { مِنَ الأرض } من مكة بإيذائهم لك ، وعَنَتهم معك ليحملوك على الخروج ، ويُكرّهوك في الإقامة بها .
وكفار مكة يعلمون أن في خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أُسْوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .
ثم يقول تعالى : { وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 76]
أي : لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة بعام جاءت بدر ، فقُتِل سبعون من صناديد قريش ، وأُسِرَ سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا يَرجُونها بعد خروجه .
ثم يقول الحق سبحانه : { سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا . . } .

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سُنة من سُنن الله في الرسل ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171-173]

فكأن عليهم أنْ يأخذوا عِبْرة من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهِدُوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الغَلبة .

والسُّنة : هي العادة والطريقة التي لا تتخلَّف ولا تتبدَّل؛ لذلك يقول بعدها : { وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } [الإسراء : 77] ؛ لأن السُّنة لا تتحوّل ولا تتبدّل إلا بالأقوى الذي يأتي ليُغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السُّنة من الله القوي بل الأقوى ، فهو سبحانه وحده الذي يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقوله الحق الذي لا يُبدِّله أحد ، ولا يُعارضه أحد .

وبعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أنْ يأتي لنا بثمرة هذا المنهج وحصيلته النهائية ، وهي أنْ يستقيمَ لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها .

هذا المنهج الإلهي جاء في صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « بُنِيَ الإسلامُ على خَمْس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » .

إذن : هذه الأركان التي بُنِي عليها الإسلام ، لكن ما حظ المسلم من هذه الأركان؟ لو تأملت لوجدتنَا نشترك كلنا في شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفي الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لأيّ سبب ، وهي المكرَّرة في اليوم خمس مرات .

أما باقي الأركان وهي : الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالفقير لا تُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن : عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التي هي : الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقتْ أركان الإسلام مع أركان المسلم .

وتلاحظ في هذه الأركان أن الشهادتين يكفي أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ، والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة؛ لذلك جعلها عماد الدين .

ثم قال تعالى : { أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ اليل . . . } .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78)

فالصلاة هي الفريضة الثابتة المتكررة التي لا تسقط عن المسلم بأي حال ، وفيها إعلانُ ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهي أيضاً تنتظم كل أركان الإسلام؛ لأنك في الصلاة تشهد

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبدل أنْ كنتَ تقولها مرة واحدة هاأنت تقولها عدة مرات في كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تشتمل على الصوم؛ لأنك تصوم في أثناء الصلاة فتمتنع عن شهوتَيْ البطن والفرج ، وكذلك عن أيِّ فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام في غير ألفاظ الصلاة . إذن : في الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

وفي الصلاة زكاة؛ لأن المال الذي تكتسبه وتُزكّيه ناتج عن الحركة ، والحركة فرع الوقت ، وفي الصلاة تُضحّي بالوقت نفسه ، فكأن الزكاة في الصلاة أبلغ .

وكذلك في الصلاة حج؛ لأنك تتوجّه فيها إلى كعبة الله ، وتستحضرها في ذِهْنك وأمام ناظريْكَ .

لذلك استحقت الصلاة أن تكون عماد الدين ، ومَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدمها فقد هدم الدين ، ومن هنا جاءت الصلاة في أول هذه الأحكام ، فقال تعالى : { أَقِمِ الصلاة . . } [الإسراء : 78] أي : أدِّها أداءً كاملاً في أوقاتها .

والصلاة لها مَيْزة عن كل أركان الإسلام؛ لأن كل تكليفات الإسلام جاءت بواسطة الوحي لرسول الله إلا الصلاة ، فقد فُرِضَتْ بالمباشرة مما يدلُّ على أهميتها ، وقد مثَّلنَا لذلك ولله المثل الأعلى بالرئيس الذي يتصل بمرؤوسه تليفونياً ليأمره بشيء ، فإذا كان هذا الشيء من الأهمية بمكان استدعاه إليه وأفهمه ما يريد .

وهكذا كانت الصلاة ، فقد فُرِضَتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بالمباشرة لما لها من أهمية بين فراض الدين ، ثم تولى جبريل عليه السلام تعليم رسول الله الصلاة ، وعَلَّمها رسول الله للناس ، وقال : « صَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي » .

وقوله تعالى : { لِدُلُوكِ الشمس . . } [الإسراء : 78]

الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا مواقيت الصلاة . و (الدلوك) معناه : الزوال من حركة إلى حركة ، ومنها قولنا : فلان (المدلكاتي) أي : الذي يتولّى عملية التدليك ، وتتحرك يده من مكان لمكان .

والمراد بدلوك الشمس : مَيْلها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب ، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السماء ، فيراها على شكل قوس ممتدّ وعلى حَسْب نظره وقوته يرى الأفق ، فإنْ كان نظره قوياً رأى الأُفُقْ واسعاً ، وإنْ كان نظره ضعيفاً رأى الأفق ضيّقاً؛ لذلك يقولون لقيل التفكير : ضيِّق الأفق .

وأنت حين تقف في مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة ، وأنت مركزها ، وساعةَ أنْ ترى الشمس عمودية عليك ، فهذا وقت الزوال ، فإذا ما انحرفتْ الشمس ناحية المغرب يُقَال : دلكت الشمس . أي : مالت ناحية المغرب ، وهذا هو وقت الظهر .

والمتأمل في فَرْض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهْر هو أول وقت صَلاَّه رسول الله؛ لأن الصلاة فُرِضَتْ عليه في السماء في رحلة المعراج ، وكانت بليل ، فلما عاد صلى الله عليه وسلم كان يستقبل الظهر ، فكانت هي الصلاة الأولى .

ثم يقول تعالى : { إلى غَسَقِ اليل . . } [الإسراء : 78] أي : أقِم الصلاة عند دُلوك الشمس إلى متى؟ إلى غَسَق الليل أي : ظلمته ، وفي الفترة من دُلوك الشمس إلى ظُلمة الليل تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى : { وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء : 78] ونتساءل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يَقُلْ صلاة؟

قالوا : لأن القرآن في هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن نديّاً طريّاً وتستقبله استقبالاً واعياً قبل أن تنشغل بأمور الحياة { إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء : 78]

أي : تشهده الملائكة . إذن : المشهودية لها دَخْل في العبادة ، فإذا كانت مشهودية مَنْ لا تكليف عليه في الصلاة جعلها الله حيثية ، فكيف بمشهودية مَنْ كُلِّف بالصلاة؟

والحق سبحانه وتعالى جعل في صلاة الجماعة استطراقاً للعبودية ، ففي صلاة الجماعة يستوي كل الخَلْق حيث يخلعون وجاهتهم ، ويخلعون أقدارهم على أبواب المسجد ، كما يخلعون أحذيتهم ، فالرئيس بجانب المرؤوس والوزير بجانب الخفير .

لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُوطِّن الإنسان لنفسه مكاناً في المسجد ، يجلس فيه باستمرار؛ لأن الأصل أنْ يجلس المصلي حيث ينتهي به المجلس ، فيجلس الناس بأولوية الحضور كل حَسْب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب ، ولا يُفرق بين اثنين .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ، ويضع سجادته ليحجزَ بها مكاناً ، ثم ينصرف لحاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيِقون من هذا التصرُّف ، ويُنحُّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها ، إنه تصرُّف لا يليق ببيوت الله التي تُسوِّي بين خَلْق الله جميعاً ، وتحقق استطراق العبودية لله ، فأنت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً في مناسك الحج ، حيث يأتي أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً متضرعاً ، وهو مَنْ هو في دُنْيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهده ملائكة الليل ، وهم غير مُكلَّفين بالصلاة ، فالأفضل من مَشْهدية الملائكة مَشْهدية المصلِّين الذين كلَّفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كما جاء في الحديث

النبوي الشريف .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس بالوقت ، وبآية كونية تدلُّ عليه هي الشمس ، فكيف العمل إذا غابت ، أو حُجِبَتْ عنَّا بغيْم أو نحوه؟

إذن : على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويُعمِلَ تفكيره في إيجاد شيء يضبط به وقته ، وفعلاً تفتقتْ القرائح عن آلات ضبط الوقت الموجودة الآن ، والتي تُيسِّر كثيراً على الناس؛ لذلك كانت الطموحات الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء المسلمين ، على اعتبار أن مَا لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ . . . } .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79)

الهجود : هو النوم ، وتهجَّد : أي أزاح النوم والهجود عن نفسه ، وهذه خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته ، أنْ يتهجَّد لله في الليل ، كما قال له ربه تعالى : { ياأيها المزمل * قُمِ اليل إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً } [المزمل : 1-4]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فَرْضاً عليه ، إلا أنها ليست في قالب من حديد ، بل له صلى الله عليه وسلم مساحة من الحرية في هذه العبادة ، المهم أن يقول لله تعالى جزءاً من الليل ، لكن ما عِلَّة هذه الزيادة في حَقِّ رسول الله؟ العلة في قوله تعالى : { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل : 5]

وكأن التهجُّد ليلاً ، والوقوف بين يدي الله في هذا الوقت سيعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألاَ وهي مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس .

وفي الحديث الشريف « أن رسول الله كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة » ، ومعنى حَزَبه أَمْر : أي : ضاقت أسبابه عنه ، ولم يَعُد له فيه منفذ ، فإنْ ضاقت عليه الأسباب فليس أمامه إلا المسبِّب سبحانه يلجأ إليه ويُهْرع إلى نجدته { إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً } [المزمل : 6]

لأنك في الوقت الذي ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدي ربك مناجياً مُتضرِّعاً ، فتتنزل عليك من الرحمات والفيوضات ، فَمَنْ قام من الناس في هذا الوقت واقتدى بك فَلَهُ نصيب من هذه الرحمات ، وحَظٌّ من هذه الفيوضات . ومَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له .

إذن : في قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان

حظّه من قيام الليل أزيد من حظهم ، فأعباء الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ، والعِبْءُ الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ، حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه .

ومن العجيب أن ينصرف المسلمون عن هذه السُّنة ، ويتغافلون عنها ، فإذا حزبهم أمر لا يُهْرَعون إلى الصلاة ، بل يتعللون ، يقول أحدهم : أنا مشغول . وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتح لك الأبواب ، وتقضى في ساعة ما لا تقضيه في عدة أيام .

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها ، فإنْ صَلُّوا صَلُّوا قضاءً ، فإن سألتَهم قالوا : المشاغل كثيرة والوقت لا يكفي ، فهل إذا أراد أحدهم الذهاب لقضاء حاجته ، هل سيجد وقتاً لهذا؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر ، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا ، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً؟!

وقوله تعالى : { نَافِلَةً لَّكَ .

. } [الإسراء : 79]

النافلة هي الزيادة عما فرض على الجميع (لك) أي : خاصة بك دون غيرك ، وهذا هو مقام الإحسان الذي قال الله عنه : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات : 15-16]

والمحسن هو الذي دخل مقام الإحسان ، بأن يزيد على ما فرضه الله عليه ، ومن جنس ما فرض؛ لذلك جاءت حيثية الإحسان : {كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الذاريات : 17-18]

وهذا المقام ليس فرضاً عليك ، فلك أن تصلي العشاء وتنام حتى صلاة الفجر ، لكن إنْ أردت أن تتأسَّى برسول الله وتتشبّه به فادخُلْ في مقام الإحسان على قَدْر استطاعتك .

ثم يقول تعالى : { عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } [الإسراء : 79]

تحدثتْ الآية في أولها عن التكليف ، وهذا هو الجزاء ، و { عسى } تدل على رجاء حدوث الفعل ، وفَرْق بين التمني والرجاء ، التمني : أن تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غير ممكن الحدوث أو مستحيل ، ومن ذلك قول الشاعر :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمُهَا ... فالشاعر يتمنى لو أصبحت الكواكب بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمن يمدحه ، وهذا أمر مستحيل الحدوث .

وقوله :

أَلاَ لَيْتَ الشَّباب يعُودُ يَوْماً ... فَأُخبرُه بِمَا فَعَلَ المشيبُ

أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن الحدوث .

ويقع تحت الطلب أشياء متعددة؛ فإنْ طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تمنٍّ ، وإن طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجٍّ ، وإنْ طلب صورة الشيء لا حقيقته فهو استفهام كما تقول : أين زيد؟ وفَرْقٌ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة .

فإنْ طلبتَ حقيقة الشيء ، فأمامك حالتان : إما أنْ تطلب الحقيقة على أنها تُفعل فهذا أمر ، مثل : قُمْ : فإنْ طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهي : لا تَقُمْ .

إذن : { عسى } تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإنْ رجوت من فلان فقد يعطيك أو يخذلك ، فإنْ قُلْتَ : عسى أنْ أعطيك فقد قربت الرجاء؛ لأنني أرجو من نفسي ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يَفِي بما وعد .

فإنْ قُلْت : عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء؛ لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجِزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولا تتناوله الأغيار إذن : فالرجاء فيه مُحقَّق لاَ شَكَّ فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود : أي الذي يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يَقُلْ : محمود مِمَّنْ؟ فهو محمود مِمَّنْ يمكن أن يتأتّى منه الحمد ، محمود من الكل من لَدُنْ آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود : هو مقام الشفاعة ، حينما يقف الخَلْق في ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشِدّته ، حتى ليتمنى الناس الانصراف ولو أن النار ، ساعتها تستشفع كُلُّ أمة بنبيها ، فيردّها إلى أنْ يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء ، فيقول : أنا لها ، أنا لها .

لذلك أمرنا صلى الله عليه وسلم أن ندعو بهذا الدعاء : « وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته » ولا شَكَّ أنه دعاء لصالحنا نحن .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ . . . } .

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80)

قوله تعالى : { مُدْخَلَ صِدْقٍ . . } [الإسراء : 80] أي : من حيث النظرة العامة؛ لأنك قبل أنْ تدخلَ اطلب الخروج أولاً؛ لأنك لن تدخلَ إلا بعد أنْ تخرجَ . وإنْ كان الترتيب الطبيعي أن تقول : أخرجني مُخْرَج صدق ، وأدخلني مُدْخَل صدق .

نقول : لا ، لأن الدخول هو غاية الخروج ، ولأن الخروج متروك والدخول مستقبل لك ، إذن : الدخول هو الأهمّ فبدأ به . لذلك يقولون : إياك أنْ تخرجَ من أمر إلا إذا عرفتَ كيف تدخل . ومعنى مخرجَ الصدق ، ومدخل الصدق ، أنك لا تدخل أو تخرج بدون هدف ، فإنْ خرجتَ من مكان فليكُن مخرجك مخرج صدق ، يعني : مطابقاً لواقع مهمتك ، وإنْ دخلتَ مكاناً فليكُنْ دخولك مدخل صدق . أي : لهدف محدد تريد تحقيقه . فإن دخلتَ محلاً مثلاً فادخل لهدف ، كشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صِدْق ، أما لو دخلتَ دون هدف أو لتؤدي خَلْق الله ، فليس

في هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرَجَ صِدْق ، ودخل مُدخَل صدق ، لأنه صلى الله عليه وسلم ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعُدْ التربة في مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُّصْرة والمؤازرة من أهلها .

فالصدق أنْ يطابق الواقع والسلوك ما في نفسك ، فلا يكُنْ لك قصور في نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : { واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً } [الإسراء : 80]

طلب النُّصْرة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفساد الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعَادُون الدعوة ، ويُجابِهونها؛ لذلك توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه تعالى الذي أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى : { سُلْطَاناً نَّصِيراً } [الإسراء : 80] السلطان : سبق أنْ أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع ، وإما سيف يَرْدَع ، وهذا واضح في قَوْل الحق تبارك وتعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط } [الحديد : 25] أي : بالآيات الواضحات ، وهذه أدوات الحجة والإقناع .

ثم يقول تعالى : { وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } [الحديد : 25] وهذه أدوات القوة والردع .

فالخيِّر من الناس يرتدع بقول الله وبقول الرسول ويستجيب ، أما الشرير فلا تُجدي معه الحجة ، بل لا بُدّ من رَدْعه بالقوة ، فالأول إنْ تعرّض للحلف بالله حلف صادقاً ، أما الآخر فإنْ تعرّض للحلف حلف كاذباً ، ووجدها فُرْصة للنجاة ، ولسان حاله يقول : أتاك الفرج .

وفي الأثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل . . . } .

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)

هكذا أطلقها الحق سبحانه شعاراً مُدوّياً { جَاءَ الحَقُّ . . } وما دام قال للرسول : { قُلْ } فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شَكَّ فيه؛ لذلك أمره بهذه الأمر الصريح ولم يُوسْوسُه له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله في عام الفتح ، وعندما دخل مكة فاتحاً وحوْلَ البيت ثلاثمائة وستون صنماً فيُكبكِبُهم جميعاً ، وينادي : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد » .

أي : جاء الحق واندحر الباطل ، ولم يَعُدْ لديْه القوة التي يُبدِئ بها و يُعيد ، فقد خَمدتْ قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَة ولا كلمة .

وقوله تعالى : { جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل . . } [الإسراء : 81] يشعرنا بأن الحق أتي بنفسه؛ لأنه نسب المجيء إلى الحق كأنه أمر ذاتيّ فيه ، فلم يأْتِ به أحد ، وكذلك في : { وَزَهَقَ الباطل . . } [الإسراء : 81] فالباطل بطبيعته زاهق مُندحر ضعيف لا بقاءَ له . « ومن العجيب أن الحق الذي جاء على يد رسول الله في فتح مكة انتفع به حتى مَنْ لم يؤمن ، ففي يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة في دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبَّروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ويُوقِفهم أمامه ويقول : » ما تظنون أني فاعل بكم؟ « قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : » اذهبوا فأنتم الطلقاء « » .

إذن : جاء الحق ليس لاستعباد الناس ، ولكن لراحتهم ورَفْع رؤوسهم . ومن الحق الذي أظل مكة بالفتح ما يُرْوَى أن واحداً دخل على النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة وأراد إيذاءه ، وحينما وضع يده على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبدَّل حاله وقال : فوالله لقد أقبلت عليه ، وما في الأرض أبغض إليَّ منه ، فحين وضعت يدي عنده فوالله ما في الأرض أحب إليَّ منه ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل .

وقوله تعالى : { إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً } [الإسراء : 81]

زَهُوق صيغة مبالغة ، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر ، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله؛ لأن الباطل لو لم يُؤلِم الناس ويُزعجهم ما تشوَّقوا للحق وما مالوا إليه ، فإذا ما لدغهم الباطل واكتَووْا بناره عرفوا الحق .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل ، فقال : { أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17]

الحق سبحانه يُمثِّل للحق وللباطل بشيء حِسّيٍّ نراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء على الأودية بين الجبال حاملاً معه صغار الحصى والرمال والقشّ ، وهذا هو الزَّبَد الذي يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثالٌ للحق الذي ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذي لا خَيْر فيه .

أو : يعطينا المثال في صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائغ الذي يُوقِد النار على الذهب ليخرج منه ما علق به من شوائب .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . } .

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)

الآية تُعطينا نموذجين لتلقِّي القرآن : إنْ تلقَّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة ، وإنْ تلقّاه الظالم كان عليه خَسَار ، والقرآن حَدَّدَ الظالمين لِيُبَيّن أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن؛ لأن القرآن خير في ذاته وليس خساراً .

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً ، لكن يختلف القابل للفعل ، ويختلف الأثر من شخص لآخر ، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح ، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مُرَّاً مائعاً ، فالماء واحد لكن المنفعل للماء مختلف . كذلك أكل الدَّسم ، فإنْ أكله الصحيح نفعه ، وزاد في قوته ونشاطه ، وإنْ أكله السقيم زاده سُقْماً وجَرَّ عليه علة فوق عِلّته .

وقد سبق أن أوضحنا في قصة إسلام الفاروق عمر رضي الله عنه أنه لما تلقى القرآن بروح الكفر والعناد كَرهه ونَفَر منه ، ولما تلقاه بروح العطف والرِّقّة واللين على أخته التي شجَّ وجهها أعجبه فآمن .

إذن : سلامة الطبع أو فساده لها أثر في تلقِّي القرآن والانفعال به . وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم ، فلو عندك كوب ماءٍ قد مُلِئ نصفه ، فالمتفائل يُلفِت نظره النصف المملوء ، في حين أن المتشائم يُلفِت نظره النصف الفارغ ، فالأول يقول : نصف الكوب ممتلئ . والآخر يقول : نصف الكوب فارغ ، وكلاهما صادق لكن طبعهما مختلف .

وقد عالج القرآن مسألة التلقِّي هذه في قوله تعالى : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 124-125]

فالآية واحدة ، لكن الطبع المستقل مختلف ، فالمؤمن يستقبلها بمَلكاتٍ سليمة ، فيزداد بها إيماناً ، والكافر يستقبلها بملكَات فاسدة فيزدادَ بها كفراً ، إذن : المشكلة في تلقّي الحقائق واستقبالها أن تكون ملكاتُ التلقي فاسدة .

ومن هنا نقول : إذا نظرتَ إلى الحق ، فإياك أنْ تنظره وفي جوفك باطل تحرص عليه ، لا بُدَّ أن تُخرِج ما عندك من الباطل أولاً ، ثم قارن وفاضل بين الأمور .

وكذلك جاءت هذه المسألة في قول الله تعالى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ * والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 16-17]

وقولهم : { مَاذَا قَالَ آنِفاً . . } [محمد : 16] دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن ، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له .

وكذلك في قوله تعالى : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ

هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . } [فصلت : 44]

ومثالٌ لسلامة التلقّي من حياتنا المعاصرة إرسال التلفاز مثلاً ، فقد تستقبله أنت في بيتك فتجده واضحاً في حَلْقة من الحلقات أو برنامج من البرامج ، فتتمتع بما شاهدت ، ثم تقابل صديقاً فيشكو لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ، إلا أن العيب في جهاز الاستقبال عندك ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز الاستقبال عندك لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن : قول الحق تبارك وتعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . } [الإسراء : 82] متوقف على سلامة الطبع ، وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء : أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة : أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ، فالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاءٌ القرآن شفاءٌ معنويٌّ لأمراض القلوب وعِلَل النفوس ، فيُخلِّص المسلم من القلق والحَيْرة والغَيْرة ، ويجتثّ ما في نفسه من الغِلّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ، أم هو شفاء للماديات ، ولأمراض البدن أيضاً؟

والرأي الراجح بل المؤكد الذي لا شَكَّ فيه أن القرآن شفاء بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة ، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء للمعنويات ، بدليل ما رُوِي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ، فأبَوْا إطعامهم ، وحدث أنْ لُدِغ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعْلٍ ، وذلك لما رأوه من بُخْلهم وعدم إكرامهم لهم ، على حَدِّ قوله تعالى : { لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . . } [الكهف : 77]

ولما اتفقوا معهم على جُعل من الطعام والشياه قام أحدهم برقية اللديغ بسورة الفاتحة فبرئ ، فأكلوا من الطعام وتركوا الشياه إلى أنْ عادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوه عن حِلِّ هذا الجُعْل فقال صلى الله عليه وسلم : « ومَنْ أدراك أنها رقية » أي : أنها رُقْية يرقى بها المريض فيبرأ بإذن الله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : «كلوا منها ، واجعلوا لي سهماً معكم » .

فشفاء أمراض البدن شيء موجود في السُّنة ، وليس عجيبة من العجائب؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه ، وهو رَبّ كل شيء ومليكه ، يتصرّف في كونه بما يشاء ، وبكلمة (كُنْ) يفعل ما يريد ، وليس ببعيد أنْ يُؤثّر كلام الله في المريض فيشفى .

ولما تناقش بعض المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء ، قالوا له : كيف يُشْفَى المريض

بكلمة؟ هذا غير معقول ، فقال العالم لصاحبه : اسكت أنت حمار!! فغضب الرجل ، وهَمَّ بترك المكان وقد ثارت ثورته ، فنظر إليه العالم وقال : انظر ماذا فعلتْ بك كلمة ، فما بالُكَ بكلمة ، المتكلّم بها الحق سبحانه وتعالى؟ ثم يقول تعالى : { وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً } [الإسراء : 82] لأنهم بظُلْمهم واستقبالهم فُيوضات السماء بمَلَكَات سقيمة ، وأجهزة متضاربة متعارضة ، فلم ينتفعوا بالقرآن ، ولم يستفيدوا برحمات الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً } .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83)

الله تعالى يريد أن يعطي الإنسان صورة عن نفسه؛ لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض ، كما يعطي الطبيب جَرْعة الطُّعْم أو التحصين الذي يمنع حدوث مرض ما . فهاهي طبيعة الإنسان وسِمَتُه الغالبة ، وعليه أنْ يُخفِّف من هذه الطبيعة ، والمراد أن الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرضَ .

ولكي نُوَضِّح هذه المسألة نُمَثِّل لها ولله المثل الأعلى الوالد الذي يعطي للابن مصروفه كل شهر مثلاً ، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر ، حيث يأتي موعد ما تعوَّد عليه من مصروف ، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره ، أما إذا عوَّده على أنْ يُعطيه مصروفه كل يوم ، فترى الولد في الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم .

فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه ، ما الذي دعاه إلى هذا التصرف؟

لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر ، فإنْ كان الابن بارّاً مؤمناً فإنه لا ينسى فَضْل والده الذي وَفَّر له طاقة الاستغناء هذه ، فيُذكِر والده بالخير ، ويحمل له هذا الجميل .

فإنْ كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الربِّ الأعلى سبحانه ، فيقول تعالى : { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ . . } [الإسراء : 83]

أي : أعرض عنا وعن ذِكْرنا وانصرف عن منهجنا ، ومن الناس مَنْ يُعرِض عن ذكر الله ، ولكنه يؤدِّي منهجه ، ولو أدَّى المنهج ذكر صاحب المنهج ما نسى المنعم أبداً .

وإذا شُغِل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فكأنه يُخطّئ المنعم ، كما قال تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7]

فالاستغناء هنا ليس ذاتياً في الإنسان ، بل هو استغناء موهوب ، قد ينتهي في يوم من الأيام ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعِم سبحانه ، يقول تعالى : { إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى } [العلق : 8]

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى في الإنسان : { وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً } [الإسراء : 83

] وهذه صفة مذمومة في الإنسان الذي إذا ما تعرّض لشرٍ أو مسَّه ضُرٌّ يقنط من رحمة الله ، وكأن الحق سبحانه يخاطب عبده الذي يقنط : لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقتْ بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبِّب سبحانه ، وما دُمْتَ في رحاب مُسبِّب الأسباب فلا تيأس ولا تقنط .

لذلك يقولون : « لا كَرْبَ وأنت ربٌّ » ، فيجوز لك القنوط إن لم يكُنْ لك رَبٌّ يتولاَّك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومَنْ له أب لا يُلقي لهموم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه في قضاء حاجاته ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ يرعاه ويتولاَّه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه في كل وقت؟

والحق سبحانه حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أنْ يُعطينا الأُسْوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان : لا تحزن إن أدَّيْتَ للناس جميلاً فأنكروه ، أو معروفاً فجحدوه ، وكيف تحزن وهم يفعلون هذا معي ، وأنا ربُّ العالمين ، فكثيراً ما أُنعِم عليهم ، ويُسيئون إليَّ ، ويكفرون بي وبنعمتي .

وسيدنا موسى عليه السلام حينما طلب من ربه تعالى أَلاَّ يقال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وأنا لم أفعل ذلك لنفسي؟! إنهم يفترون على الله ما ليس فيه ، ويكفرون به سبحانه وينكرون إيجاده ونعمه ، فَمنْ يغضب لقول الكافرين أو إيذائهم له بعد هذا؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويقنط؟ لأنه في حال النعمة أعرض عن الله ونأى بجانبه : أي ابتعد عن ربه ، لم يَعُدْ له مَنْ يدعوه ويلجأ إليه أن يُفرِّج عنه ضيق الدنيا .

إذن : لما أعرض في الأولى يَئِس في الثانية . والله تعالى يجيب مَنْ دعاه ولجأ إليه حال الضيق حتى إنْ كان كافراً ، كما قال تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 67]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهدى سَبِيلاً } .

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84)

أي : أن كل إنسان يعمل على طريقته ، وعلى طبيعته ، وعلى مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان ، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان ، أو بما عنده من خلايا كفر ، فالناس مختلفون وليسوا على طبع واحد ، فلا تحاول إذن أن تجعل الناس على طبع واحد .

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإنْ أساء إليك إنسان سيئ الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيّب؛ لذلك يقولون : لا تُكافئ مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه . وبذلك يستقيم الميزان في

المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول تعالى : { فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهدى سَبِيلاً } [الإسراء : 84] والربُّ : المتولّي للتربية ، والمتولّي للتربية لا شكّ يعلم خبايا المربَّى ، ويعلم أسراره ونواياه ، كما قال تعالى : { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي . . . } .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

والسؤال يَرِد في القرآن بمعان متعددة ، ووردتْ هذه الصيغة { وَيَسْأَلُونَكَ } في مواضع عِدّة ، فإنْ كان السؤال عن شيء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن ، كما في قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء فِي المحيض } [البقرة : 222]

وقوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ } [البقرة : 215]

فإنْ كان السؤال عن شيء لا يضر الجهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما في سؤالهم عن الأهِلّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً ، ثم يأخذ في التناقص ليعود كما بدأ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن في هذه الأمور الكونية التي لم نعرفها إلا حديثاً أمر غير ضروري ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن في إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أمية غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحَوِّلهم القرآن ، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهِلَّة : { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج . . } [البقرة : 189]

وقد يأتي السؤال ، ويُرَاد به اختبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن الروح ، وهم يعلمون تماماً أن هذه مسألة لا يعلمها أحد ، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله ، فلعله يقول في الروح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه في صَرْف الناس عن دعوته .

ولا شَكَّ أنه سؤال خبيث؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر في مظهر العالم ، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة ، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة ، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم .

ولكن خَيَّب الله سَعْيهم ، فكانت الإجابة : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ

أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 85]

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح ، وأنها من عند الله .

و { الروح } لها إطلاقات مُتعدِّدة ، منها : الرُّوح التي تمدُّ الجسم بالحياة إن اتصلت به ، كما في قوله تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29]

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة ، وتحوَّل إلى جثة هامدة ، وفيها يقول تعالى : { فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم } [الواقعة : 83]

وقد تأتي الروح لتدل على أمين الوحي جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى :

{ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193]

وقد تُطلَق الروح على الوحي ذاته ، كما في قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } [الشورى : 52]

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة ، كما في قوله تعالى : { أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ } [المجادلة : 22]

وأُطلِقَتْ الروح على عيسى ابن مريم عليه السلام في قوله تعالى : { إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ } [النساء : 171]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة ، فما العلاقة بينها؟

قالوا : الروح التي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطي مادية الحياة ، ومادية الحياة شيء ، وقيَمُ الحياة شيء آخر ، فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً؟ لا ، بل هو روح الروح؛ لأن الروح الأُولى قصاراها الدنيا ، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة في الآخرة ، فأيُّهما حياته أطول؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هي حياتك أنت وكونك تُحِسُّ وتتحرك وتعيش طالما فيك روح ، لا بل هناك روح أخرى أعظم في دار أخرى أَبْقى وأَدْوم : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64]

لأن الروح التي تعيش بها في الدنيا عُرْضة لأنْ تُؤخَذ منك ، وتُسلَب في أيّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً في بطن أمك ، إلى أنْ تصير شيخاً طاعناً في السنِّ . . أما روح الآخرة ، وهي روح القيم وروح المنهج ، فهي الروح الأَقْوى والأَبْقى؛ لأنها لا يعتريها الموت .

إذن : سُمِّي القرآن ، وسُمِّي المَلَك النازل به روحاً؛ لأنه سيعطي حياة أطول هي حياة القيم في الآخرة .

وهنا يقول تعالى : { قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي . . } [الإسراء : 85]

أي : أن هذا من خصوصياته هو سبحانه ، وطالما هي من خصوصياته هو سبحانه ، فلن يطلع أحداً على سِرِّها . وهل هي جوهر يدخل الجسم فيحيا ويسلب منه فيموت ، أم هي مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه ، فإنْ قال لها كُنْ تحيا ، وإنْ قال مِتْ تموت؟

إنّ علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة ، وسيظل بينهما مسافات طويلة؛ لذلك قال تعالى بعدها : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 85]

وهل عرف العقل البشري كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح؟!

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفي : وهل أَحَطْتَ عِلْماً بكل شيء في الكون؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذي لا تعلم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهِلّة قال : { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج . . } [البقرة : 189]

وهذه هي الفائدة التي تعود علينا والتي تهمنا من الأَهِلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التي تمر بها الأَهِلّة فأمور لا يضر الجهل بها؛ ذلك لأن الاستفادة بالشيء ليستْ فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل الأُميّ في ريفنا يقتني الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة؟ وكيف تستقبل؟

إذن : الاستفادة بالشيء لا تحتاج معرفة كل شيء عنها ، فيكفيك إذن أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك في متاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . } [الإسراء : 36] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدي ، وأَلاَّ يُتعِب نفسه ويُجهدها في علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره في مثل مسألة الروح هذه ، أنْ ينشغل بعمل ذي فائدة له ولمجتمعه . وأيّ فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سِرٍّ من أسرار الروح؟ وأيّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً؟

إذن : مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التي تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 85] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، ومازال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم وكأنه سبحانه يقول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سِرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق } [فصلت : 53]

وهاهم العلماء والباحثون يقفون كل يوم على جديد في الكون الفسيح وفي الإنسان ، ولو تابعتَ ما توصّل إليه علماء الفضاء ورجال الطب لَهالكَ ما توصَّلوا إليه من آيات وعجائب في خَلْق الله تعالى ، لكن هل معنى ذلك أننا عرفنا كل شيء؟ إن كلمة { سَنُرِيهِمْ } ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخُطىً واسعة ، ففي الماضي كان التقدم يُقَاسُ بالقرون ، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد ، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها ، كما قال تعالى : { حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت . . } [يونس : 24]

فكلُّ مَا نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كُنَّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء ، وكُنَّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال ، فابتكارات الإنسان في الكماليات ، أما الضروريات فقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض .

فإذا ما استنفدتْ العقول البشرية نشاطاتها ، وبلغتْ مُنتهى مَا لديها من ابتكارات ، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في زمام الكون ، لا يعجزهم فيه شيء ، كما قال تعالى :

{ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس } [يونس : 24]

فبعد ما أخذتم أسرار المنعِم في الكون على قَدْر ما استطعتم ، فاذهبوا الآن إلى المنعِم ذاته لتروا النعيم على حقيقته ، وكلما رأيت في دنيا الناس ابتكارات واختراعات تُسعِد الإنسان ، فهذا ما أعدَّ البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّ الله الخالق لخَلْقه؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد والحسد لمن توفرتْ لديه ، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقي عند المنعِم سبحانه .

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التي خلقها الله والعقل المخلوق الله والطاقة المخلوقة لله ، فَدوْر الإنسان أنه أعمل عقله وفكره في المقوّمات التي خلقها الله ، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات ، ومهما تطورتْ هل ستصل إلى درجة : إذا خطر الشيء ببالك تجدْه بين يديك؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً }

.

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86)

الحق سبحانه في هذه الآية يريد أنْ يُرِيّ الكفار ويُؤنّبهم ، ويريد أن يُبَرّئ ساحة رسوله صلى الله عليه وسلم ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبلّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْترٍ ، أو أتى بشيء من عنده ، بدليل أنني لو شِئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإنْ سأل متسائل : وكيف يذهب الله بوحي مُنزّل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث؛ لأن الحق سبحانه يقول : { وَلَئِن شِئْنَا . . } [الإسراء : 86] بمعنى : لو شِئْنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد بيان إمكانية ذلك ليُبَرّئ موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمور شيء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ . . } [آل عمران : 128] أنها ضد رسول الله ، وقَدْح في شخصه ، وليس الأمر كذلك؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أنْ يتحمّل عنه ما يمكن أن يُفسِد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندي أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذي فعل شيئاً ، فيأتي سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذي أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد في قدرة الخالق سبحانه أن يسلب مِنَّا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقد الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ في الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إنْ » ، وهي تستخدم للأمر المشكوك في حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتي للأمر المحقق .

ثم يُوضّح لنا الحق سبحانه أنه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته { ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً } [الإسراء : 86]

ثم يقول الحق سبحانه : { إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } .

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87)

قوله تعالى : { إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . } [الإسراء : 87] أي : أنك لا تجد لك وكيلاً في أيّ شيء إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فَضْلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ليعلن تحديه للعالمين : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } .

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، وأسمِعْ بها الناس جميعاً؛ لأن القضية قضية تَحَدٍّ للجميع .

{ لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن . . } [الإسراء : 88] وهما الثَّقَلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذي هو مَنَاطُ التكليف . وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى القرآن كما استمعت إليه البشر : { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً } [الجن : 1-2]

والتحدِّي معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحدّاهم بشيء لا عِلْم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه؛ لأنه لا معنى للتحدي في هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدَّيْتَ إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدَّى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدِّي في محلِّه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد ، وهي من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر ، وجاءت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمة والأبرص؛ لأن قومه نبغوا في الطب ، وكانت معجزته صلى الله عليه وسلم في البلاغة والفصاحة التي نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صِدْق رسالته ، لكن الآيات لا تُقترح على الله تعالى؛ لأنه سبحانه هو الذي يختار الآيات التي تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صِدْق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزاتٍ في مجالات لا عِلْم لهم بها ، فكيف يتحدّاهم الله في مجال لا نبوغَ لهم فيه ، وليس لهم دراية به؟

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لَدُن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثتْ لرسول الله ليراها القوم الذي عاصروه ، ومِثْل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردتْ من صادق معصوم؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله في نفوس مَنْ شاهدوها ، فنُبوع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، وكَوْنُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يُكلِّمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره صلى الله عليه وسلم .

وفي القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوي يُنظِّم حركة الحياة ، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفكّ عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتي بمنهج فقط ، أما المعجزة فشيء آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمة والأبرص ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بأن تكون معجزته هي منهجه .
لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أنْ يُفسِح لهم جبال مكة ، ويُوسِّع عليهم الأرض ، وأنْ يُحيي لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى بَل للَّهِ الأمر جَمِيعاً . . } [الرعد : 31]
أي : كان في القرآن غَنَاءٌ لكم عن كُلِّ هذه المسائل .
وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إنْ كانت الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته في البلاغة والفصاحة ليتحدَّى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب؟
نقول : أولاً : إذا كان العرب ارتاضوا على الملَكَة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدي ، فغيرهم مِمَّنْ اتخذ العربية صناعة لا شكَّ أعجز .
ثانياً : مَنْ قال إن المعجزة في القرآن في فصاحته وبلاغته فقط؟
لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للأمة المتلقِّية للدعوة الأولى ، هؤلاء الذين سيحملون عِبْءَ الدعوة ، ويَسِيحُون بها في شتى بقاع الأرض ، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر .
فالغيبيات التي يخبرنا بها ، والكونيات التي يُحدّثنا عنها ، والتي لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن ، وهو مُنزّل على نبي أُميٍّ ، وفي أُمة أُميّة غير مثقفة ، فهذه كلها نواحي إعجاز للعرب ولغيرهم ، وما زِلْنا حتى الآن نقف أمام آيات ، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها .
وفي الماضي القريب توصّل العلم إلى أن الذرة أصغر شيء في الوجود ، وقد ذكر القرآن الذرة في مثل قوله : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8]
وبتقدُّم وسائل البحث توصَّلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها ، ووجدنا في الكون ما هو أقل من الذرة ، فظنّ البعض أن هذه لا ذِكْر لها في القرآن ، وظنوا أنهم تصيَّدوا على القرآن مأخذاً ، ولو أمعنوا النظر في كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمي رصيداً في كتاب الله حيث قال تعالى : { وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي

كِتَابٍ مُّبِينٍ } [يونس : 61]
والقرآن يقول { أَصْغَرَ } لا صغير ، فلو فتَّتْنَا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً في كتاب الله ، أَلاَ ترى في ذلك إعجازاً؟
إذن : تحدَّاهم الحق سبحانه بقوله : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن .

. } [الإسراء : 88] وأُدخِل الجنّ في مجال التحدي؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مُفوّه ، أو عبقري عنده نبوغ بياني شيطاناً يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادي عَبْقَر » ، لذلك لم يكتَف القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوة في هذا الأمر .
ثم يقول تعالى : { على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن . . } [الإسراء : 88] فالتحدِّي أنْ يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أنْ يأتوا به نفسه؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الأمر ، فمستحيل أنْ يأتُوا به نفسه مرة أخرى؛ لأنْ الواقع لا يقع مرتين .
إذن : المتصوَّر في مجال التحدي أنْ يأتوا بمثله ، فلو قلت : هذا الشيء مثل هذا الشيء ، فلا شَكَّ أن المشبّه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقي المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أَوْلَى .
فالحق سبحانه في قوله : { لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . } [الإسراء : 88] لا ينفي عنهم أن يأتُوا بقرآن ، بل بمثل القرآن ، فإذا كانوا لا يأتون بالصورة ، فهل يقدرون على الأصل؟!
ثم يقول تعالى زيادةً في التحدِّي : { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء : 88]
والظهير : هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر ، ومنه قوله تعالى : { وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم : 4] لأنه قد يقول قائل : إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد ، فقال لهم سبحانه : بل هاتوا كل ما لديكم من طاقات إبداعية وعبقريات بيانية ، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجن ، وتعاونوا جميعاً في سبيل هذا التحدي ، حتى إذا كان في أحدكم نقص أكمله الآخر .
لكن ، هل ظَلَّ التحدي قائماً على أنْ يأتُوا بمثل القرآن؟
المتتبع لهذا الموضوع في القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يتنزل معهم في القدر المطلوب للتحدِّي ، وهذا التنزُّل يدل على ارتقاء التحدِّي ، فبعد أنْ تحدّاهم بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، تحدّاهم بعشْر سُور ، ثم تحدّاهم بسورة واحدة ، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدي ، فلا شكَّ أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحديهم بمثل هذا القرآن .
وهذا التنزُّيل الذي يفيد الارتقاء كما نجمع مثلاً بين المتناقضات ، فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التنزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدّي ، فليس الهدف منه تعجيز القوم ، بل أن نثبت لهم السواسية بين الخَلْق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هي القضية التي تُزعجهم وتقضّ مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صِدْق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبّرون لقتله .

ولذلك من غبائهم أن قالوا : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن في حَدِّ ذاته ، بل على محمد الذي نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكانة ، كما قال تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . } [النساء : 54]

وسبحان الله ، إذا كان الخَلْق يختلفون أمام رحمة الله في مسائل الدنيا التي لهم فيها أسباب وسَعْي واجتهاد ، فكيف بالأمر الذي ليس في أيديهم؟ كيف يريدون التدخُّل فيه : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . } [الزخرف : 32]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآني ، فيقول : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ . . } .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ، والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعددة؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعاني مختلفة ، فلا بُدَّ أن يصرف الأسلوب ويَقلِبه على أكثر من وجه ، فالذي لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثالاً على ذلك قضية القمة ، وهي الألوهية ووحدانية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها في معارض مختلفة هكذا : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا . . } [الأنبياء : 22]

أي : في السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربي؛ لأنه يفتقد المَلَكَة اللغوية التي يتلقّى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لَفَسدتَا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإنْ كان معه آخرون ، والمنطق في هذه الحالة يقول : لو كان في السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا

تفسد .

لكن الحقيقة أن { إِلاَّ } هنا ليس للاستثناء ، بل هي اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لَفسدَتا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . } [المؤمنون : 91]

فالحق تبارك وتعالى مُنزّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله آخر لَذهبَ كل إله بما خلق ، واختصّ نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضُهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء للوجود ، فأيّهما يبرزه؟ إنْ قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإنْ لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للألوهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42]

أي : إنْ كان مع الله آلهة كما يدَّعي المشركون لَذهَب هؤلاء الآلهة إلى ذي العرش يُعاتبونه أو يُؤدِّبونه ، أو يُعاقبونه؛ لأنه انفرد بالمُلْك من دونهم .

وبأسلوب آخر يقول تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . } [آل عمران : 18]

ولم يَأْتِ مَنْ ينازعه هذه المكانة ، أو يدَّعيها لنفسه ، إذن : فقد ثبتتْ له هذه القضية إلى أنْ يُوجَد معارض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إنْ لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى : هَبْ أن جماعة انصرفوا من مجلس ، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود في مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فلم يدَّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هي لي ، أيشكُّ صاحب البيت أنها له؟

نرى هذا التصرف أيضاً في أسلوب القرآن في مسألة ادعاء أن لله تعالى ولداً ، تعالى الله عما يقول المبطلون عُلُواً كبيراً ، فيعرضها القرآن هكذا :

{ وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله } [التوبة : 30]

فيردُّ القرآن هذا الزعْم بقوله تعالى : { بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ . . } [الأنعام : 101]

وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ } [النحل : 57]

أي : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أنْ تأخذوا أنتم البنين؛ لأنهم المفضلون حَسْب زعمكم ، وتتركوا له تعالى البنات : { أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى } [النجم : 21-22] أي : قسمة جائرة .

وهكذا يُصرِّف القرآن أسلوبه ، ويُحوّله ليقنع به جميع العقول؛ ليناسب كل الطبائع . وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة؛ لذلك كان من التصريف في أسلوب القرآن استخدام المثل ، وهو تعبير مُوجَز ، يحمل المعاني الكثيرة وتتعشق لفظه ، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته .

فإذا أرسلتَ أحداً في مهمة أو جماعة ، فيمكنك حين عودتهم تقول لهم مستفهماً : (ماذا وراءكِ يا عصام؟) هكذا بصيغة المؤنثة المفردة ، لأن المثل قيل هكذا ، حيث أرسل أحدهم امرأة تسمى عصام لتخطب له إحدى النساء وحينما أقبلت عليه خاطبها بهذه العبارة ، فصارت مثلاً .

وكما تقول لصاحبك الذي يتعالى عليك : (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) إذن : المثل يمتاز بأنه يثبت على لفظه الأول ولا يتغير عنه .

أما الحكمة فهي : قول شارد يقوله كل واحد ، وهو كلام يقلُّ لفظه ، ويجِلُّ معناه .

كما تقول : « رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أمك » .

« لا تُعلِّم العَوانُ الخِمْرة » .

« إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » أي : أن الذي يُجهِد دابته في السير لن يصل إلى ما يريد؛ لأنها ستنقطع به ولا تُوصِّله .

ومن الحكمة هذه الأبيات الشعرية التي صارت حكمة متداولة :

وَمَنْ يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلاَلاَ

وقوله :

وَأَتْعَس النَّاسِ حَظّاً مَنْ تكونُ لَه ... نَفْسُ المُلُوكِ وحالاتُ المسَاكين

وهَبْ أن ولدك أهمل دروسه طوال العام وعند الامتحان أخذ يجدّ ويَجْتهد ويُرهِق نفسه ، هنا يمكنك أن تقول له : (قبل الرماء تُملأُ الكنائن) والكنانة هي المخلاة التي تُوضَع بها السهام ، وهذه لا بُدَّ أنْ يُعِدّها الصياد قبل صَيْده لا وقت الصيد .

إذن : لأهمية المثل في لغة العرب جعله القرآن لَوْناً أسلوبياً ، وأداةٍ للإقناعِ ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . } [البقرة : 26]

لأن الله تعالى يخاطب بالقرآن عقولاً مختلفة وطبائع متعددة؛ لذلك لا يستحي أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته لِيُقنعَ الجميع كُلاً بما يناسبه .

وقوله : { فَمَا فَوْقَهَا } قد يقول قائل : ولماذا قال { فَمَا فَوْقَهَا } ، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر؟

نقول : المراد بما فوقها .

أي : في المعنى المراد ، وهو الصِّغر . أي : ما فوقها في الصِّغر لا أكبر منها .

ثم يأتي بالمعنى في صورة أخرى : { ياأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 41]

إذن : يُصرِّف الله الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به ، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطي للجميع . بل يُشخّص الداءات ويُحلِّلها ويعالجها بما يناسبها؛ لذلك يأتي الأسلوب مختلفاً .

وهذه المسألة واضحة في الحديث النبوي الشريف ، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم السؤال الواحد ، وتأتي الإجابة مختلفة من شخص لآخر ، فقد سُئِل صلى الله عليه وسلم كثيراً : ما أفضل الأعمال يا رسول الله؟ فقال للسائل : « الصلاة لوقتها » وقال لآخر : « بر الوالدين » وقال لآخر : « أنْ تلقىَ أخاك بوجه طَلْق » .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي حال سائله ، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هي مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : { فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً } [الإسراء : 89]

نعرف أن (إلاّ) أداة استثناء ، تُخرِج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيدا ، والآية أسلوب عربي فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يَرْضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفي .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً } .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90)

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْي الفعل في المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه . أي : في المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، ولا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذي لا يتغيّر ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أنْ يحكمَ على شيء حُكْماً قاطعاً في مستقبل هو لا يملكه ، فالذي يملك الحكم

القاطع هو الحق سبحانه الذي لا تتناوله الأغيار .

لذلك فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة؟

وقد عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُهُ ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّ

والعجيب أن الناس يتطلعون في نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبَّذا ، لو حدث كذا لَتَمتْ هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص في النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها؟

فَلْيَرْضَ كلٌّ صاحب نعمة بما فيها من نقص ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْن حاسد ، أو حقد حاقد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد . . وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة في الآخرين ، وأنه التميمة التي تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبي أن يمدح سيف الدولة قال له :

شَخِصَ الأَنامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ ... مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بعَيْبٍ وَاحِد

أي : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعمل عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن) تفيد تأبيد النفي في المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أمّا صاحب الأغيار فليس له ذلك ، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة : { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً } [الإسراء : 90]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتْكم (لن) في الكذب؛ لأنكم أبَدْتُم نَفْي الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفجِّر لكم النبي ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبي جهل وقال في الخَنْدَمَة ما قال ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً معتذراً وخرج محارباً مع خالد بن الوليد في اليرموك ، وحين طُعِن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضِي عني رسول الله؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبّر لأسلوب القرآن في سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : { قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَاَ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ } [الكافرون : 1-4]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر في الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : { وَلاَ أَنَاَ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ } [الكافرون : 4-5] لينفي أيضاً احتمال العبادة في المستقبل ، إذن : فليس في الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصَار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ : كيف نفى القرآن الحديث في المستقبل؟ نقول : لأن المتكلّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذي يملك الأحداث ولا تُغيّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبَّد النَّفي فيه .

ثم يقول تعالى : { حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً } [الإسراء : 90]

وفي آية أخرى قال : { وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً . . } [القمر : 12]

فالتفجير : أن تعمل في الأرض عملية تُخرِج المستتر في باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرِج لك الماء من الأرض ، وتأخذ من حاجتك فلا ينقص؛ لأنها تعوض ما أُخِذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يغيض الماء فيها قليلاً .

أما الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما في زمزم مثلاً ، ولا شكَّ أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : { أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً } .

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91)

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول { جَنَّةٌ } أي : بستان أو حديثة من النخيل والعنب؛ لأنهما الصِّنْفان المشهوران عن العرب { فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً } [الإسراء : 91] أي : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويواصلون تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : { أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً } .

أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92)

الزَّعْم : هو القبول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطّية الكذب ، قال تعالى : { زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ . . } [التغابن : 7]

وإنْ كانوا اتهموا رسول الله بالزعم ، فما هو إلا مُبلِّغ عن الله ، وناقل إليهم منهج ربه ، فإنْ أرادوا أنْ يتَّهموا فليتهموا الحق سبحانه وتعالى؛ لأن رسوله لا ذنبَ له ، وقد جاءوا بمسألة إسقاط السماء عليهم؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال عنهم : { أَفَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ مِّنَ السمآء والأرض إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء } [سبأ : 9]

ولذلك طلبوا من رسول الله أنْ يُوقِع بهم هذا التهديد .

و { كِسَفاً . . } [الإسراء : 92] أي : قِطَعاً ، ومفردها كسفة كقطعة .

ويقول تعالى : { أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً } [الإسراء : 92] أي : نراهم أمامنا هكذا مُقابلةً عياناً ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : { وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا . . } [الفرقان : 21]

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد؛ لذلك يقول الحق سبحانه رَدّاً على لَجَج هؤلاء وتعنُّتهم : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا } [الأنعام : 111]

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا : { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ . . } .

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)

البيت : هو المكان المعدّ للبيتوتة ، والزخرف : أي المزيّن ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة؛ لأن كل زُخْرف من زخارف الزينة يطرأ عليه ما يُغيّره فيبهت لونه ، وينطفئ بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذي لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره؛ لذلك يظل على بريقه ورَوْنقه ، فإنْ كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله؟

ونرى الذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاقَ الحضارات ، ويتبارَوْنَ في زخرفة الصناعات يُلصِقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب؛ لتظلَّ محتفظة بجمالها ، كما في الأطقم الفرنساوي أو الإنجليزي مثلاً .

ثم يقول تعالى : { أَوْ ترقى فِي السمآء . . } [الإسراء : 93]

أي : يكون لك سُلَّم تصعد به في السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا في هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوي عليه نفوسهم من عناد : { وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ . . } [الإسراء : 93]

وكأنهم يُبيّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون في الأولى وكاذبون في الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذي أرادوا ما آمنوا ، وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي

قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } [الأنعام : 7]
وانظر إلى رد القرآن على كل هذا التعنت السابق : { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي . . } [الإسراء : 93]
وكلمة { سُبْحَانَ } كلمة التنزيه العُلْيا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله؛ لأنها كلمة لا تُقَال إلا لله تعالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أنْ قالها أحد لأحد ، مع ما في الكون من جبابرة وعُتَاة ، يحرص الناس على منافقتهم وتملُّقهم ، وهذه كلمة اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان ، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد .
والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرون عليها ، وتحدى المختار في المثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تستطيع أن تفعل ذلك ، ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } [المسد : 1-3]
نزلت هذه الآيات في أبي لهب ، وهو كافر ، ويحتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدرِي رسول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرآناً يُتلَى ويُحفظ ويُسجَّل ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ، وأن مصيره النار .
وهنا نقول : أَمَا كان في إمكان أبي لهب أنْ يُكذّب هذا القول ، فيقوم في قومه مُنادياً بلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ولو نِفَاقاً وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب؟
لكن هذا لم يحدث؛ لأن المتكلم هو الله ربُّ العالمين .

ومن هذا التحدي أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء مأخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو عَلَم على الذات الإلهية لم يُؤخَذ من صفة من صفاته تعالى ، فالقادر والغفور والحيّ القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة من صفات ، إنما (الله) عَلَم على الذات الجامعة لكُلِّ هذه الصفات .
لذلك تحدَّى الخالق سبحانه جميع الخَلْق ، وقد أعطاهم الحرية في اختيار الأسماء أنْ يُسمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ، ويعلن هذا التحدي في كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65] ؟
ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أنْ يُسمِّيَ هذا الاسم ليظلَّ هذا التحدي قائماً إلى قيام الساعة؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمان به وبوجوده تعالى متغلغل حتى في نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن هذه الكلمة كذب ، أو لا وجودَ لها لأقدموا على التسمية بها دون أن يُبالُوا شيئاً ، أَمَا وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ، ويُجرِّب هذه التسمية في نفسه؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدري ما هي .
لذلك رَدَّ الحق سبحانه على تعنُّت الكفار فيما طلبوه من رسوله صلى الله عليه وسلم قائلاً : {

سُبْحَانَ رَبِّي . . } [الإسراء : 93] لأن الأمور التي طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَدَّاً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتي لا تُطلَق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك في كتاب الله الذي نزل إليهم : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت : 51]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجُّب أيضاً : أيطلبون هذه الآيات ، ولم يكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناءٌ لهم .

ثم يقول تعالى : { هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 93]

هل ادعيْتُ لكم أَنِّي إله؟! ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربي ، وأفعل ما يأمرني به ، كما في قوله تعالى : { قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [يونس : 15]

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } .

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94)

أي : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً ، هذه هي القضية التي وقفت في حلوقهم : { أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94]

والمتأمِّل في مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أنْ تتم إلا ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقِّي عن الله من وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس؛ لأن البشر لا يستطيع أنْ يتلقّى عن القُوة العليا مباشرة ، فإذنْ : هناك مراحل : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } [الشورى : 51]

لكن الرسول البشري كيف يُكلِّم الله؟ لا بُدَّ أنْ نأتي برسول من الجنس الأعلى : { الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً . . } [الحج : 75] وهذا مرحلة ، ثم يصطفي رسولاً من البشر يتلقّى عن المَلَكِ كي يستطيع أنْ يُبلِّغكم؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر يتلقى عن الملك كي يستطيع أن يبلغكم؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى : أنت إذا أردتَ إضاءة لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائي عالٍ ، هل يمكن أنْ تُوصِّله بهذه اللمبة؟ لا لأنها ستحرق فوراً ، إذن : ما الحل؟ الحل أنْ تأتي بجهاز وسيط يُقلِّل لك هذا التيار القوي ، ويعطي اللمبة على قَدْر حاجتها فتضيء .

كذلك الحق سبحانه يصطفي من الملائكة رسلاً يمكنهم التلقِّي عن الله ويصطفي من البشر رسلاً

يمكنهم التلقّي عن الملائكة ، ثم يُبلّغ الرسول المصطفى من البشر بني جنسه . إذن : فماذا يُزعجكم في أنْ يكون الرسول بشراً؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهي أمر طبيعي؟

يقول تعالى : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس . . } [يونس : 2]

وفي موضع آخر يقول سبحانه : { واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية إِذْ جَآءَهَا المرسلون * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فقالوا إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنَزلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ } [يس : 13-15]

إذن : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح عليه السلام ألم يَقُلْ له قومه : { فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا . . } [هود : 27]

وقالوا : { وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ } [المؤمنون : 34]

وقالوا : { أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ } [القمر : 24]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر في السُّنة المتبعة في الرسل : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . } [النحل : 43]

أي : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالاً لِيتمّ اللقاء بينكم ، وإلاّ فلو جاء الرسول مَلَكاً كما تقولون ، هل سترؤن هذا الملَك؟ قالوا : لا هو مُستتر عنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ، وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوّر لكم الملَك في صورة رجل ليؤدي مهمة البلاغ عن الله ، وهكذا نعود من حيث بدأنا؛ لأنها الطبيعة التي لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9] إذن : لا داعي للتمحُّك والعناد ، ومصادمة الفطرة التي خلقها الله ، والطبيعة التي ارتضاها لخَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } .

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95)

{ قُلْ } أي : رَدّاً عليهم : لو أن الملائكة يمشون في الأرض مطمئنين لَنزَّلنا عليهم مَلَكاً رسولاً لكي يكون من طبيعتهم ، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ ، وهذا واضح في حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين لِيُعلم الصحابة : ما الإحسان؟ ما الإيمان؟ ما الإسلام . فيأتي جبريل مجلس رسول الله في صورة رجل من أهل البادية

، وبعد أنْ أدَّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم لِيُعلِّمكم أمور دينكم » .

شيء آخر يقتضي بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أسوة سلوك لقومه ، كما قال تعالى : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . } [الأحزاب : 21]

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة؟ وكيف يقتدي الناس بها إنْ كان الرسول مَلَكاً؟

فالرسول عندما يُبلِّغ منهج الله عليه أنْ يُطبّق هذا المنهج في نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بِنَجْوَة ، بل هو إمامهم في القول والعمل .

لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبّق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر رضي الله عنه إذا أراد أن يُقنّن قانوناً ويرى أنه سيتعب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذّرهم من المخالفة : « فو الذي نفسي بيده ، مَنْ خالفني منكم إلى شيء لأجعلنّه نكَالاً للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أُطبِّقه على نفسي » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها في عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة : « حكمتَ ، فعدلْتَ ، فأمنت ، فنمْتَ يا عمر » وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحَواليْه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدي به ، فإنْ رأوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجرؤ أحد منهم على المخالفة ، وإنْ رأوْه منحرفاً فاقوه في المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدها تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب .

ولقد رأينا في واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأُسْوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، في حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش في قصر ورثه عن أبيه أو جَدِّهِ ، وكأنه يُغلِظ على نفسه ويبغي الرفاهية لرعايته .

وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أتى بمنهج ، وهو في الوقت نفسه أُسْوة سلوك وقُدْوة ، فنراه صلى الله عليه وسلم يحثّ الغنيّ على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإنْ توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُوَرَّثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه صلى الله عليه وسلم .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا ما أحسَّ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره؛ لأنه لا يعمل

لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم في كُلِّ مستويات الحياة .
فالرسول إنْ جاء مَلَكاً فإن الأُسْوة لا تتمّ به ، فإنْ أمرنا بشيء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتجّ عليه : كيف وأنت مَلَكٌ لا شهوةَ لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .
ومن هنا لا بُدَّ أن يكون الرسول بشراً فإنْ حمل نفسه على منهج فلا عُذْر لأحد في التخلُّف عنه؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى الاقتداء بسلوكه .
وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً وقُلْنا : هَبْ أنك رأيتَ في الغابة أسداً يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً؟ إنما لو رأيتَ فارساً على صَهْوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب الأعداء ، ألاَّ تتطلع إلى أن تكون مثله؟
إذن : لا تتمّ القُدْوة ولا تصح إلا إنْ كان الرسول بشراً ، ولا داعي للتمرُّد على الطبيعة التي خلقها الله .
ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ كفى بالله شَهِيداً . . . } .

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96)

{ قُلْ } أي : رَدّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم على بشرية الرسول : { كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . } [الإسراء : 96]
والشهيد إنما يُطلَب للشهادة في قضية ما ، فما القضية هنا؟ القضية هي قضية تعنُّت الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم طلبوا منه مَا ليس في وُسْعه . والرسول لا يعنيه المتعنتون في شيء؛ لأن أمره مع ربه عز وجل؛ لذلك قال : { كفى بالله شَهِيداً . . } [الإسراء : 96]
فإنْ كانت شهادة الشاهد في حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعني أنه تعالى الشهيد الذي رأى ، والحاكم الذي يحكم ، والسلطة التنفيذية التي تنفذ .
لذلك قال : { كفى بالله شَهِيداً . . } [الإسراء : 96]
فهو كافيك هذا الأمر؛ لأنه كان بعباده { خَبِيراً } يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم من وراء هذا التعنُّت { بَصِيراً } لا يخفي عليه شيء من أمرهم .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ . . } .

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97)

سبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتي تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذي آمنوا به ، وهذه خاصّة بالمؤمن ، فبعد أنْ دَلَّه الله آمن وصدَّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى . . } [فصلت : 17]

أي : دَلَلْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بأسلوبين قرآنيين يوضِّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . } [القصص : 56]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يملكها ، وفي آية أخرى قال تعالى : { وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الشورى : 52]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة؛ لأن هذه هي مهمته كمبلِّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه؛ لأن الجهة مُنفكَّة أي : أن جهة الإثبات غير جهة النفي ، كما في قوله تعالى : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا . . } [الروم : 6-7]

فمرة : نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرّر مثل هذه القضايا لكي تستقرّ في النفس الإنسانية ، وفي مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قول الحق سبحانه : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى . . } [الأنفال : 17]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرّمْي الذي أثبتته الآية ، وقد تولَّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلتْهم عن القتال ، وهذا هو الرَّمْي الذي نفاه الحق عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذي تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتي بالكتب ويضعها أمامه ويُقلِّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعت معه ما ذاكر لا تجدْه حصَّل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر

موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدي الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }

[محمد : 17]

وقال عن الآخرين : { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [الصف : 7] لكن يهدي العادلين .

وقال : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [الصف : 5] . . لكن يهدي الطائعين .

وقال : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264] . . لكن يهدي المؤمنين .

إذن : بيَّن الحق سبحانه في أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : { وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الأنعام : 110]

نعود إلى { مَن } في قوله تعالى : { وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد . . } [الإسراء : 97] قلنا : إن (مَن) اسم موصول بمعنى الذي ، واستخدام (مَن) كاسم موصول لا يقتصر على (الذي) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذي ، التي ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتي .

فتقول : مَنْ جاءك فأكرِمْه ، ومَنْ جاءتك فأكرِمْها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهم ، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم ، ومَنْ جِئْنَكَ فأكرِمْهُن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهي إذن صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) في الآية : { وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد . . } [الإسراء : 97] جاءت (مَنْ) دالَّة على المفرد المذكر ، وهي في نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث ، فنقول : مَنْ يهدِهَا الله فهي المهتدية ، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون غيره في مجال الهدى ، أما في الضلال فجاءتْ (مَنْ) دالة على الجمع المذكر؟ نقول : لأنه لاحظ لفظ (من) فأفرد الأولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : { وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ . . } [الإسراء : 97]

وهنا مَلْحظ دقيق يجب تدبُّره : في الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد : { وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد . . } [الإسراء : 97] لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

أما في الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : { فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ . . } [الإسراء : 97]

لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : { وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . . } [الأنعام : 153]

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابة خَطّاً مُسْتقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً مُتعرّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي » .

إذن : الهداية طريق واحد ، وللضلال أَلْف مذهب ، وألف منهج؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم في ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص في الضلال . فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعي وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال : فمن تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهي التي وضعتْ كُلَّ حَرْف في موضعه .

وقوله : { أَوْلِيَآءَ } أي : نُصَراء ومعاونين ومُعينين { مِن دُونِه } أي : من بعده { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ } [الإسراء : 97]

الحشْر : القيام من القبر والجمع للحساب { على وُجُوهِهِمْ } هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على وجهه؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم » .

وما العجب في ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : { فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ . . } [النور : 45]

ألم تَرَ الثعبان ، كيف هو سريع في مِشْيته ، خفيف في حركته ، فالذي خلق قادر أن يُمشِيَ من ضَلَّ في القيامة على بطنه ، لأن المسألة إرادة مريد لِيُوقع بهم غاية الذِّلَّة والهوان ، ويا ليتهم تنتهي بهم المهانة والمذلّة عند هذا الحدِّ ، بل : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً . . } [الإسراء : 97]

هذا استطراق لوسائل الإهانة ، ففضلاً عن مَشْيهم على الوجوه فهم عُمْي لا يرؤْنَ شيئاً ، ولا يهتدون ، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام ، ولك أنْ تتصوَّر إنساناً جمعت عليه كل هذه الوسائل ليس في يوم عادي ، بل في يوم البعث والنشور ، فإذا به يُفَاجأ بهَوْل البعث ، وقد سُدَّت عليه جميع منافذ الإدراك ، فهو في قلب هذا الهَوْل والضجيج ، ولكنه حائر لا يدري شيئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفتة على هذه الآية ، فقد ورد في القرآن كثيراً : صُمٌّ بُكْم بهذا الترتيب إلا في هذه الآية جاءت هكذا : { وَبُكْماً وَصُمّاً } ومعلوم أن الصَّمَم يسبق البَكَم؛ لأن الإنسان يحكي ما سمعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يستطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهي ظاهرة اجتماعية ليستْ

جنساً وليست دَمَاً .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الولد الإنجليزي إذا تربَّى في بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . حتى العربي نفسه الذي يعيش في بيئة عربية ، إلا أنه لم يسمع هذه الألفاظ الغريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن في هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهَوْلِ البعث والحشر كان المفروض أن يسأل أولاً عَمَّا يحدث ، ثم يسمع بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجئ بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عَمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم في هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجارونهم مِمَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً .

. } [الإسراء : 97] فينفي عنهم الرؤية ، وفي آيات أخرى يقول : { حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ . . } [مريم : 75] { وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا . . } [الكهف : 53] فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات؟ والمتأمل في حال هؤلاء المعذَّبين في موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْياً لِيتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل في الحالَيْن : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : { لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ } [ق : 22]

ثم يقول تعالى : { مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الإسراء : 97] مأواهم : أي : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أي : ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفئ؟ أليس في ذلك راحة لهم من العذاب؟

المتأمل في الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو في حَدِّ ذاته لَوْنٌ من العذاب؛ لأن استدامة الشيء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إِلْف له ، فإنْ خَبتِ النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكَى لهم وآلم في تعذيبهم .

وهذا يُسمُّونه في البلاغة « اليأس بعد الإطماع » ، كما جاء في قول الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَداةَ كَقَابِضٍ ... عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأَصَابِع

في السجون والمعتقلات يحدث مثل هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حَدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتي له بكوب الماء حتى يكون على شَفَتَيْه

، ويطمع في أنْ يبلّ ريقه ويطفئ غُلَّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ في التعذيب .

وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

كَمَا أبرقَتْ قَوْمَاً عِطَاشاً غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّتِ

أي : ساعة أَنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

وكذلك من ألوان العذاب التي قد يظنُّها البعض لَوْناً من الراحة في جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبَدِّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمةً بهم بل نكايةً فيهم ، كما قال تعالى : { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . } [النساء : 56]

لأن الجلود إذا نضجتْ وتفحَّمت امتنع الحِسُّ ، وبالتالي امتنعتْ إذاقة العذاب ، إذن : العلة من تبديل الجلود تجديد الحسِّ ليذوقوا العذاب إذاقةً مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحسَّ يأتي من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شيء للمخ .

فمثلاً : لو أشرت بأصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمِض عينه قبل أنْ تلمسه ، وفسَّروا ذلك بما يسمونه العكس في النخاع الشوكي ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحسِّ في الإنسان أيْن هي؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس في الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذتَ حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة؟ ومَنْ أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إنه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآني للعرب ولغيرهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا . . . } .

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)

{ ذَلِكَ } أي : ما حدث لهم من العذاب الذي تستبشعه أنت { جَزَآؤُهُم } أي : حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً ، فإياك حين تسمع آيات العذاب هذه أن تأخذَك بهم رَأْفة أو رحمة؛ لأنهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذي يعطف قلوب الناس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب .

فهناك فَرْقٌ بين العقوبة في وقت وقوع الجريمة ، وهي ما تزال بشعةً في نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل في القلوب ، فإنْ عاقبتَ في هذا الجو كان للعقوبة معنىً ، وأحدثتْ الأثر المرجوّ منها وتعاطفَ الناس مع المظلوم بدلَ أنْ يتعاطفوا مع الظالم .

فحين نُؤخِّر عقوبة المجرم في ساحات المحاكم لعدة سنين فلا شَكَّ أن الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها ، وتتلاشى بشاعتها ، ويطويها النسيان ، فإذا ما عاقبتَ المجرم فلن يبدو للناس إلاَّ ما يحدث من

عقوبته ، فترى الناس يرأفون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . } [النساء : 56]

وإلى : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الإسراء : 97]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله ، فأحذر أنْ تأخذك بهم رحمة ، ففي سورة النور يقول تعالى : { وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2]

ثم يوضح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : { بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا . . } [الإسراء : 98]

والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيّدة لِصِدْق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام . . وقد وقع منهم الكفر بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبّروا الحكمة من خَلْق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به .

وهذا كله يدلُّ على نقص في العقيدة ، وخَلَل في الإيمان الفطري الذي خلقه الله فيهم ، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرسول ، فدلَّ ذلك على خَلَل في التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا : { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [الإسراء : 98] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التي جاءتْ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسَبُون ، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : { عِظَاماً وَرُفَاتاً . . } [الإسراء : 98] الرفات : هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً ، وهو : الشيء الجاف الذي تكسّر؛ لذلك جاءت لترتيب هكذا : عظاماً ورُفَاتاً؛ لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسّر هذه العظام ، وتتفتتْ وتصير رفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقوله تعالى : { أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . . } [الإسراء : 98] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ في ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أنْ ينكر البعث ، وعلى فَرْض أنه سيحدث فإنهم سيكونون في الآخرة سادة ، كما كانوا سادةً في الدنيا . وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هي الحركة الحسية التي يمارسونها ، وبها يعيشون حياتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شيء حياةً تناسبه .

فمثلاً : علماء الجيولوجيا والحَفْريات يقولون : إن الأشياء المطمورة في باطن الأرض تتغيّر بمرور الزمن ، وتتحول إلى موادّ أخرى ، إذن : ففيها حركة وتفاعل أو قُلْ فيها حياة خاصة بها تناسبها ، فليست الحياة قاصرة على حركتنا في الحياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التي يفهمها هؤلاء .

فالإنسان الحيّ مثلاً له في مظهرية أموره حالتان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته في النوم محكومة بقانون ، وحياته في اليقظة محكومة بقانون ، هذا وهو ما يزال حياً يُرزَق ، إذن : عندما نخبرك أن لك قانوناً في الموت وقانوناً في البعث فعليك أنْ تُصدِّق .

ألم تَرَ النائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكيها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث وألوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه في اليقظة؟ حتى مكفوف البصر الذي فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو في اليقظة لا يرى؟

نقول : لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك في النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة . أَلاَ ترى الرجلين ينامان في فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة مُحزِنة يصحو فيها مُكدّراً محزوناً ، ولا يدري الواحد منهم بأخيه ولا يشعر به ، لماذا؟

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحياته المستقلة التي لا يشاركه فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصاحبك في نصف ساعة ، في حين أن العلماء توصلوا إلى أن أقصى ما يمكن للذهن متابعته في النوم لا يتجاوز سبع ثوان ، مما يدلُّ على أن الزمن في النوم مُلْغي ، كما أن أدوات الإدراك ملغاة ، إذن : فحياتك في النوم غير حياتك في اليقظة ، وكذلك في الموت لك حياة ، وفي البعث لك حياة ، ولكل منهما قانون يحكمها بما يتناسب معها .

وقد يقول قائل عن الرُّؤَى : إنها مجرد تخيُّلات لا حقيقةَ لها ، لكن يَرُدّ هذا القول ما نراه في الواقع من صاحب الرُّؤْيا الذي يحكي لك أنه أكل طعاماً ، أو شرب شراباً ما يزال طَعْمه في فمه ، وآخر ضُرِب ، ويُريك أثر الضرب على ظهره مثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصبَّب عَرقاً ، وكأنه كان في عراك حقيقي لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُوضّح لنا أننا في النوم لنا حياة خاصة وقانون خاص ، لنأخذ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد الموت .

والعلماء قالوا في هذه المسألة بظاهرة المتواليات ، والمراد بها : إذا كانت اليقظة لها قانون ، والنوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة ، فبالتالي للموت قانون أخفّ من قانون النوم ، وللبعث قانون أخف من قانون الموت .

وقد حَسَم القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . } [القصص : 88]

أي : كلُّ ما يُقَال له شيء في الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقي ، والهلاك ضدّه الحياة ، بدليل قوله تعالى : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . } [الأنفال : 42]

إذن : لكل شيء مهما صَغُر في كَوْن الله حياة خاصة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن في علبة الكبريت هذه التي نضعها في جيوبنا قوة تجاذب بين ذراتها ، تصلح هذه القوةَ لتسيير قطار حول العالم لمدة ست سنوات ، سبحان الله .

. أين هذه القوة؟ إنها موجودة لكِنّنا لا نشعر بها ولا ندركها ، إنما الباحثون في معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التي تعلَّمناها منذ الصِّغَر والتي تعتمد على ترتيب الذرّات ترتيباً مُعيناً ، ينتج عنه المُوجَب والسالب ، فيتم التجاذب فكانوا يضعون لها بُرادَة الحديد في أنبوبة ، ويُمَرِّرون عليها قضيباً مُمَغْنَطاً ، فنرى برادة الحديد تتحرك في نفس اتجاه القضيب .

إذن : في الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغتْ من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام وللرفات حياةً ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أنْ صِرْتَ رُفاتاً ، فشيء منك موجود يمكن أن يكون نواةً لخلْقِك من جديد ، وبمنطق هؤلاء المنكرين أيهما أهوَنْ في الخَلْق : الخَلْق من شيء موجود ، أم الخَلْق ابتداءً؟

وقد رد عليهم الحق سبحانه بقوله : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4]

أي : في علمه سبحانه عدد ذرات كل مِنّا ، وكم في تكوينه من مواد ، لا ينقص من ذلك شيء ، وهو سبحانه قادر على جمع هذه الذرات مرة أخرى ، وليس أمره تعالى متوقفاً على العلم فقط ، بل عنده كتاب دقيق يحفظ كل التفاصيل ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال تعالى كذلك في الرد عليهم : { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق : 15] أي : في خَلْط وشَكٍّ وتردُّد .

وقد ناقشنا مِنْ منكري البعث الشيوعيين الذي قتَّلوا في أعدائهم ، وأخذوا أموالهم مُعاقبةً لهم على ما اقترفوه من ظلم الناس ، فكنت أقول لهم : فما بال الذين ماتوا من هؤلاء ، ولم يأخذوا حظّهم من العقاب؟ وكيف يذهبون هكذا ويُفلتون بجرائمهم؟ لقد كان الأَوْلَى بكم أنْ تؤمنوا بالآخرة التي يُعاقب فيها هؤلاء الذين أفلتوا من عقاب الدنيا ، حتى تتحقق عدالة الانتقام .

وقوله تعالى : { أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [الإسراء : 98]
إنهم يستبعدون البعث من جديد؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يجاري هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . } [الروم : 27]
فإعادة شيء كان موجوداً أسهلُ وأهونُ من إيجاده مِنْ لا شيء ، والحديث هنا عن بَعْث الإنسان ، هذا المخلوق الذي أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقي المخلوقات وهي أعظم الخَلْقِ في الإنسان ، وأطول منه عُمراً ، وأثبت منه وأضخم .
فلا تَنْسىَ أيها الإنسان أن خَلْقك أهونُ وأسهلُ من مخلوقات أخرى كثيرة هي أعظم منك ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ولم تنكر كما أنكرت ، يقول تعالى : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . } [غافر : 57]
فمَنْ ينكر بَعْث الإنسان بعد أن يصير رفاتاً عليه أن يتأمل مثلاً الشمس كآية من آيات الله في الكون ، وقد خلقها الله قبل خَلْق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهي تعطي الضوء والدفء دون أنْ تتوقف أو تتعطّل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهي تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسخَّرة لخدمتك ، ما تخلَّفتْ يوما ولا اعترضتْ . فماذا يكون خَلْقك أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه؟
والحق سبحانه يقول : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . . } .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99)

قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . } [الإسراء : 99]
إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفي ، فاعلم أن الهمزة دخلتْ على شيء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : أيقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أنْ يخلق مثلهم .
وقوله تعالى : { مِثْلَهُمْ } أي : يخلقهم هم ويُعيدهم من جديد؛ لأن الخَلْق إنشاء جديد ، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ ، فالمثلية هنا في أنهم مُعَادون ، أو يكون المراد { مِثْلَهُمْ } أي : ليسوا هم ، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا في الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد في الآخرة وإنْ كان مثلهم في التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شيء لا إرادةَ له؛ لأنه الآن في الآخرة التي سينادي فيها الخالق سبحانه : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16]
وقوله تعالى : { وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فأبى الظالمون إِلاَّ كُفُوراً } [الإسراء : 99] أي :

أن القيامة التي كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكّ فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصِرُّون على الكفر مهما أتيتَ لهم بالأدلة ، ومهما ضربتَ لهم الأمثلة ، فإنهم مُصمِّمون على الإنكار؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة ، الإيمان سيُسوّي بينهم وبين العبيد ، وسيُقيّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تأبَّوْا على الإيمان ، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرَّضوا لظلم من أحد في الدنيا؟ ألم يعتَدِ عليكم أحد؟ ألم يسرق منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته؟ لقد كان أَوْلَى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم مِمَّنْ ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآني إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى : { قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي . . . } .

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100)

قوله تعالى : { قُل } أمر من الحق سبحانه وتعالى أنْ يقولَ لأمته هذا الكلام ، وكان يكفي في البلاغ أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأمته : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي . . لكن النبي هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآني ، ولا يحذف منه شيئاً؛ لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليلٌ على مدى صدق الرسول في البلاغ عن ربه .

ومعنى { خَزَآئِنَ } هي ما يُحفظ بها الشيء النفيس لوقته ، فالخزائن مثلاً لا نضع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى : { خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي . . } [الإسراء : 100] أي : خَيْرات الدنيا من لَدُن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإنْ من شيء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر في عالم الواقع أو لم يظهر : { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] أي : أنه موجود في عِلْم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدَّث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية في السماء والأرض قال : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : 9-10] نلاحظ أن قوله تعالى { وَبَارَكَ فِيهَا } جاءت بعد ذِكْر الجبال الرواسي ، ثم قال : { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . } [فصلت : 10] كأن الجبال هي مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض .

والقوت : وهو الذي يتمّ به استبقاء الحياة ، وهذا ناشئ من مزروعات الأرض ، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخبار بما سيحدث ، فهاهو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التي تُكوّن الإنسان هي نفس عناصر التربة الزراعية التي نأكل

منها .

لكن ، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذي جعله الله في الأرض قبل أن يُخْلَق الإنسان؟

نقول : إن الجبال هي أساس التربة التي نزرعها ، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التي تراها أمامك جامدة هي في الحقيقة ليست كذلك؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة ، كل هذه عوامل تُفتِّت الصخر وتُحدِث به شروخاً وتشققات ، ثم يأتي المطر فيحمل هذا الفُتات إلى الوادي ، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر ، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى ، وقاعدته إلى أسفل ، والوادي مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وهكذا ، فكُلُّ ما ينقص من الجبل يزيد في الوادي ، ويُكوِّن التربة الصالحة للزراعة ، وهو ما يسمى بالغِرْيَن أو الطمى؛ لذلك حَدَّثونا أن مدينة دمياط قديماً كانت على شاطئ البحر الأبيض ، ولكن بمرور الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغِرْيَن أو الطمي الذي حمله النيل من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر ، والآن وبعد بناء السد وعدم تكوُّن الطمي بدأت المياة تنحت في الشاطئ ، وتنقص فيه من جديد .

إذن : فقوله تعالى عن بداية خلق الأرض : { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . } [فصلت : 10] كأنه يعطينا تسلسلاً لخَلْق القُوت في الأرض ، وأن خزائن الله لا حدودَ لها ولا نفادَ لخيراتها .

ثم يقول تعالى : { إِذاً لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُوراً } [الإسراء : 100]

أي : لو أن الله تعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح في أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخِلَ وقَتَرَ خوف الفقر؛ لأنه جُبِل على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التي لا نفادَ لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أَنفق؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يُحدِث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإنْ كان على النفس فهو التقتير ، وهو سُبَّة واضحة ومُخزِية ، فقد يقبل أن يُضَيِّق الإنسانُ على الغير ، أما أنْ يُضيق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوّره؛ لذلك يقول الشاعر في التندُّر على هؤلاء :

يُقتِّر عِيسَى عَلَى نَفْسِه ... وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِد

فَلَوْ يستطيعُ لتَقتِيرِه ... تنفَّسَ مِنْ مَنْخرٍ وَاحِدِ

ويقول أيضاً :

لَوْ أنَّ بيتَكَ يَا ابْنَ يوسف كُلُّه ... إبرٌ يَضِيقُ بِهَا فَضَاءُ المنْزِلِ

وأَتَاكَ يُوسُفُ يَستعِيرُكَ إبْرَةً ... لِيَخيطَ قدَّ قمِيصِهِ لَمْ تفْعَلِ

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر علَى نفسه؛ لأنه جُبِل علَى البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتِي خزائن السماوات والأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . } .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101)

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة آيات ذُكِرَتْ في قوله تعالى : { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 90-93]

فأراد الحق سبحانه أنْ يُلفِت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر في كل زمان ومكان .

ومعنى { بَيِّنَاتٍ . . } [الإسراء : 101] أي : واضحات مشهورات بَلْقَاء كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هي الآيات الخاصة بفرعون؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بني إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . } [الإسراء : 101] هي الآيات التي أُرسِل بها إلى فرعون وقومه وهي : العصا التي انقلبتْ حية ، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببني إسرائيل .

وقوله تعالى : { فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . } [الإسراء : 101] والأمر هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كيف يسأل بني إسرائيل الذين جاءهم موسى عليه السلام وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم؟ نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ، لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله : { وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } [إبراهيم : 6]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله { أَنْجَاكُمْ } لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجِدُوا هم ، فكأن نجاة السابقين نجاةٌ للاحقين .

ويسأل رسول الله بني إسرائيل لأنهم هم الأمة التي لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صِلَة سابقة بوَحْي السماء؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله :

{ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب } [الرعد : 43]

لأن الذي عنده عِلْم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم عِلْم في كتابهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم .

وسؤال رسول الله لبني إسرائيل سؤالَ حُجَّةٍ واستشهاد؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات سبق ذِكْرها لكي يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرّ العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ومع ذلك كفروا وجُّوا ولم يؤمنوا ، فقوم فرعون رَأَوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : { وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا . . } [الإسراء : 59] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل واعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات . . } [الإسراء : 59] أي : التي اقترحوها { إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . } [الإسراء : 59] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء؛ لأن الكفر مِلَّة واحدة في كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ في الحقيقة رغبة في الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : { فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ } [الإسراء : 101] أي : بعد أنْ رأى الآيات كلها : { إِنِّي لأَظُنُّكَ ياموسى مَسْحُوراً } [الإسراء : 101] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة { مَسْحُوراً } [الإسراء : 101] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتي اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما في قوله تعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً } [الإسراء : 45]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة في السَّتْر ، كما نبالغ نحن الآن في استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { ظِلاً ظَلِيلاً } [النساء : 57]

فالظل نفسه مُظلَّل ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا في الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رَطباً بارداً ، لماذا؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلّل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر في النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله { مَسْحُوراً } تفيد أنه سحَر غيره ، أو سحره غيره؛ لأن المسحور هو الذي أَلَمَّ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : { إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } [الإسراء : 47] والمسحور بمعنى المخبول الذي أثّر في السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل رَدُّه وضَحْده .

فإنْ كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأتّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرّ على العقل الواعي الذي يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى :

{ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 1-4]

والمجنون لا يكون على خُلُق أبداً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أنْ اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الغَلَبة لموسى ، وخَرَّ السحرة ساجدين ، قال : { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر . . } [طه : 71] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ . . } .

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102)

أي : قال موسى لفرعون ، والتاء في { عَلِمْتَ } مفتوحة أي : تاء الخطاب ، فهو يُكلِّمه مباشرة ويُخاطبه : لقد علمتَ يا فرعون عِلْمَ اليقين أنني لستُ مسحوراً ولا مخبولاً ، وأن ما معي من الآيات مما شاهدته وعاينته من الله رب السماوات والأرض ، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره ، كما قال تعالى : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . . } [النمل : 14]

إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتُقوِّض

عروشهم .

وقوله تعالى : { بَصَآئِرَ . . } [الإسراء : 102] أي : أنزل هذه الآيات بصائر تُبصّر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيُقبلوا على ذلك الرسول الذي جاء بآية معجزة من جنس ما نبغَ فيه قومه .

ثم لم يَفُتْ موسى عليه السلام وقد ثبتتْ قدمه ، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة ، وأن يُجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : { وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً } [الإسراء : 102] فقد سبق أنْ قال فرعون : { إِنِّي لأَظُنُّكَ ياموسى مَسْحُوراً } [الإسراء : 101] فواحدة بواحدة ، والبادي أظلم .

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كُلِّ خير ، وكأن الله تعالى أطْلعَ موسى على مصير فرعون ، وأنه هالكٌ عن قريب . وعلى هذا يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإنْ فقد نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ، لأنك لو تأملتَ حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء دون أنْ يتعرّض له أحد أو يُحاسبه أحد ، وهذا مُنْتَهى ما يتمناه السلاطين والحكام وأهل الجبروت في الأرض ، فماذا ينتظر القادة والأمر إلاَّ أن تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مُطَاعاً؟ وهذا كله ينعَم به المجنون .

وهنا يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قَيْد الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذي يتميز به؟

نقول : أنت لا تدري أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا أعطاه؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيُّها العاقل لتمنيتَ أنْ تُجَنَّ!! أَلاَ تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أنْ يعترضه أحد ، أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم في وجهه ، ثم بعد ذلك لا يُحاسَب في الآخرة ، فأيُّ عِزٍّ أعظم من هذا؟

إذن : سَلْب أيّ نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه ولا يستنبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فإياك أنْ تظنّ أنك أفضل منه عند الله ، لا ليس مِنّا مَنْ هو ابنٌ لله ، وليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذي حُرِم نعمة البصر عُوِّض عنها في حواس أخرى ، يفوقك فيها أنت أيها المبصر بحيث تكون الكِفَّة في النهاية مُسْتوية .

واسمع إلى أحد العِمْيان يقول :

عَمِيتُ جَنِيناً والذكَاءُ مِنَ العَمَى ... فجئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعِلْم مَوْئِلاً

وَغَاب ضِيَاءُ العَيْن للقلْبِ رافداً ... لِعِلْمٍ إذَا مَا ضيَّع الناسُ حَصّلا

فحدِّث عن ذكاء هؤلاء وفِطْنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كُلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كُلَّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص في تكوينهم يُعوِّضهم عنه في شيء آخر عزاءً لهم عما فَاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون

دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يُدرِكه ويستنبطه .
وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقْصٍ ما يحاولون تعويضه ويتفوقون في نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويُحدِثوا توازناً في حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية في مجتمعهم .
ومن ذلك مثلاً العالم الألماني (شاخْت) وقد أصيب بِقصَرٍ في إحدى ساقيْه أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأثَّر ذلك في نفسه فصمَّم أنْ يكون شيئاً ، وأنْ يخدُمَ بلده في ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخُطّة التي تعينها في السِّلْم وتعويضها ما فاتها في الحرب ، فكان (شاخْت) رجل الاقتصاد الأول في ألمانيا كلها .
ويجب أن نعلم أن التكوين الإنساني وخَلْق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطي نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس ماكينة كالتي تصنع الأكواب مثلاً ، وتعطينا قِطَعاً متساوية ، بل لا بُدَّ من الشذوذ في الخَلْق لحكمة؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه ، ألا ترى الأولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين في اللون أو الطول أو الذكاء . . الخ؟!
يقول تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . . } [الروم : 22]
إنها قدرةٌ في الخَلْق لا نهاية لها ، وإبداعٌ لا مثيلَ له فيما يفعل البشر .
وهناك ملْمح آخر يجب أن نتنبه إليه ، هو أن الخالق سبحانه وتعالى جعل أصحاب النقص في التكوين وأصحاب العاهات كوسائل إيضاح ، وتذكُّر للإنسان إذا ما نسى فضْل الله عليه ، لأنه كما قال تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7]
فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعم سبحانه ، فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكّر نعمة الله ، وربما تجد المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبَّط في الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول : الحمد لله .
إذن : هذه العاهات ليستْ لأن أصحابها أقلُّ مِنّا ، أو أنهم أهوَنُ على الله . . لا ، بل هي ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين لِتلفِتهم إلى نعمة الله .
لكن الآفة في هذه المسألة أنْ ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بَلْوَاه على ربه ، بل يُظهِرها للناس ، وكأنه يقول لهم : انظروا ماذا فعل الله بي ، ويتخذ من عَجْزه وعاهته وسيلةً للتكسُّب والترزّق ، بل وابتزاز أموال الناس وأَخْذها دون وَجْه حق .

وفي الحديث الشريف : « إذَا بُلِيتم فاستتروا » .
والذي يعرض بَلْواه على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ووالله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساقَ له رزقه على باب بيته . والأدْهَى من ذلك أن يتصنّع الناس

العاهات ويدَّعوها ويُوهِموا الناس بها لِيُوقِعوهم ، وليبتزّوا أموالهم بسيف الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذي ربَّى موسى منذ أنْ كان وليداً ، وفي وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى في قلب فرعون وزوجته فقالت : { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [القصص : 9]

فأين ذهب عداوتُه وبُغْضه للأطفال؟ ولماذا أحبَّ هذا الطفلَ بالذات؟ ألم يكُنْ من البديهي أنْ يطرأ على ذِهْن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله في اليَمّ لينجو من القتل؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البديهية على ذِهْنه؟ اللهم إلا قوله تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ . . } [الأنفال : 24]

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه لِيُبيّن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُمْقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأسرة عنايةُ المربّي الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ مِنْ بَنيكَ عِنَايةً ... فَقَدْ كذبَ الرَّاجِي وَخَابَ المؤملُ

فمُوسَى الذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كافِرٌ ... وَمُوسَى الذِي رَبَّاه فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأرض . . } .

فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103)

{ فَأَرَادَ } أي : فرعون . { أَن يَسْتَفِزَّهُم } كلمة « استفزَّ » سبق الكلام عنها في قوله تعالى : { واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ . . } [الإسراء : 64] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالي ، يقوم المنَادَى ويخفّ من مكانه ، وهذا الصوت أو هذه الصَّيْحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى في لعبة الكراتيه مثلاً لِيُزعِج الخصم ويُخيفه ، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغَل الخَصْم ، وتأخذ جزءاً من تفكيره ، فيقِلّ تركيزه ، فيمكن التغلُّب عليه . ومن الاستفزاز قَوْل أحدِنا لابنه المتكاسل : فِزْ . أي : انهض وخِفّ للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرِجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا ليأخذ بني إسرائيل ، كما جاء في قوله تعالى : { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ } [الشعراء : 16-17]

فكأن غباء فرعون أعان القدر الذي جاء به موسى عليه السلام ولكن كان لله تعالى إرادة فوق

إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بني إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أنْ يُنفذ ما أراد .

كما يقولون في الأمثال عند أهل الريف للذي هدَّد جاره بأنْ يحرق غلّته وهي في الجرن ، فإذا بالقدر يعالجه (والغلة لسه فريك) أي : يعاجله الموت قبل نُضْج الغلة التي هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومَنْ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . } .

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

قوله تعالى : { مِن بَعْدِهِ } أي : من بعد موسى { اسكنوا الأرض } أغلب العلماء قالوا : أي الأرض المقدسة التي هي بيت المقدس ، التي قال تعالى عنها : { يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . . } [المائدة : 21] فكان ردّهم على أمر موسى بدخول بيت المقدس : { إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُواْ مِنْهَا . . } [المائدة : 22]

وقالوا : { إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة : 24]

لكن كلمة { الأرض } هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف { اسكنوا الأرض } دون أنْ يُقيّدها بوصف ، كما نقول : أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردتَ أنْ تُسكِنَ إنساناً وتُوطّنه تقول : اسكن أي : استقر وتوَطّن في القاهرة أو الإسكندرية مثلاً ، لكن اسكن الأرض ، كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل؟! لا بُدَّ أن تُخصِّص لي مكاناً اسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى { اسكنوا الأرض } هكذا دون تقييد بمكان معين ، لينسجم مع آيات القرآن التي حكمتْ عليهم بالتفرُّق في جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال تعالى : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . } [الأعراف : 168]

والواقع يُؤيد هذا ، حيث نراهم مُتفرقّين في شتَّى البلاد ، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمَّعون فيها ، ولا يذوبون في الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [الإسراء : 104] والمراد بوَعْد الآخرة : هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : { وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً } [الإسراء : 4-5]

فقد جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ديارهم في المدينة ، وفي بني قريظة وبني قَيْنُقاع ، وبني النضير ، وأجلاهم إلى أَذْرُعَات بالشام ، ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفسادة الثانية لبني إسرائيل : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً } [الإسراء : 7]

وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم في شتيت الأرض؟ لا بُدَّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : { جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [الإسراء : 104] أي : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ . . . } .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105)

قوله تعالى : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ . . } [الإسراء : 105]

الحق من حقَّ الشيء . أي : ثبت ، فالحقّ هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : { أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17]

فإنْ رأيت في عَصْر من العصور خَوَرَاً يصيب أهل الحق ، وعُلُواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو عُلُوّ الزَّبَد يعلو صَفْحة الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقِي به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكث في الأرض الماء الصافي الذي ينتفع الناس به في الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الأعلى الذي لا تتناوله الأغيار .

وقوله : { أَنْزَلْنَاهُ . . } [الإسراء : 105]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب في { أَنْزَلْنَاهُ } لم يتقدَّم عليه شيء يُوضِّح الضمير ويعود إليه ،

صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف ، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يُسبق الضمير بشيء ، كما سُبق بمرجع في قوله تعالى : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . } [الإسراء : 88]

فهنا يعود الضمير في { بِمِثْلِهِ } إلى القرآن الذي سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه ، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيّناً لا يختلف فيه اثنانِ ، كما في قوله تعالى : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يُخْتَلفُ عليه .

كذلك في قوله تعالى : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ . . } [الإسراء : 105]

أي : القرآن؛ لأنه شيء ثابت مُتعيّن لا يُخْتَلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكأن الحق سبحانه كان كلامه وهو القرآن محفوظاً في اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يأتيَ زمان مباشرة القرآن لمهمته ، فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، كما قال تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر } [القدر : 1]

وهذا هو المراد من قوله { أَنزَلْنَاهُ } ثم نُنزّله مُنَجَّماً حَسْب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها ، فكلما حدث شيء نزل القسط أو النجم الذي يعالج هذه الحالة .

و { أَنْزَلْنَاهُ .

. } [الإسراء : 105] أي : نحن ، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذي حفظه في اللوح المحفوظ ، وهو الذي أنزله ، وأنزله على الأمين من الملائكة الذي اصطفاه لهذه المهمة .

{ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] أي : جبريل عليه السلام الذي كرَّمه الله وجعله روحاً ، كما جعل القرآن روحاً في قوله : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . } [الشورى : 52]

وقال عنه أيضاً : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [التكوير : 19]

والكريم لا يكتم شيئاً مِمّا أُوحى إليه : { ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير : 20-21]

هذه صفات جبريل الذي نزل بالوحي من الحق سبحانه ، ثم أوصله لمن؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر : { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين * وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } [التكوير : 22-25]

إذن : فالقرآن الذي بين أيدينا هو هو الذي نزل من اللوح المحفوظ ، وهو الحق الثابت الذي لا شَكَّ فيه ، والذي لم يتغيّر منه حرفٌ واحدٌ ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة .

ثم يقول تعالى : { وبالحق نَزَلَ . . } [الإسراء : 105] الأولى كانت : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ . . }

[الإسراء : 105]

أي : الوسائل التي نزل بها كلمة ثابتة ، وكلها حَقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شَكَّ { وبالحق نَزَلَ . . } [الإسراء : 105] أي : مضمونه ، وما جاء به منهج ، معجزة حقٌّ لأنه تحدّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللغة فأعجزهم في كل مراحل التحدي ، والقرآن يحتوي على منهج حق .

وأول شيء في منهج القرآن أنّه تكلّم عن العقائد التي هي الأصْل الأصيل لكل دين ، فقبل أنْ أقول لك : قال الله ، وأَمَر الله لا بُدَّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَنْ الرسول الذي بلَّغ عن الله ، فالعقائد هي ينبوع السُّلوكيات .

إذن : تعرّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرَّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كُلُّ هذا في العقائد؛ لأن الإسلام حرصَ أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة في مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين لِيُرَبِّيَ في المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلقي زمام حركته إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدَّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلّغ عن الله .

وفي القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسَخ بشريعة أخرى؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : { اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً } [المائدة : 3]

إذن : نزل القرآن بما هو حَقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوّات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حَقٌّ ثابت لا شَكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنِ اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنِ اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفي طي ما نزل الحق الثابت الذي لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذي لا يتغير على مَرِّ العصور ، ففي ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف في استعمال الحق ، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف في استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بني سويف للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذي ادعَوْا السبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذي تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامي ثابت وموجود في سُنّة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذي شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل في بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم

الرسول في هذه المسألة؟

هذا الرجل له حَقٌّ في النخلة ، فهي مِلْكٌ له لكنه تعسَّف في استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقال له : « إما أن تَهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذي سبق به الإسلام؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة في حياة الناس؟

أَضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات في معنى : { وبالحق نَزَلَ } أي : وعلى الحق الذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أي : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً } [الإسراء : 105]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط في التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة ، ولا جدوى منهما ، فتُبشّر بالجنة وتُنذَر بالنار في مُتَّسَع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل في مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها؛ لأنه ليس مُلْزَماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6]

أي : مُهلكها حُزْناً على عدم إيمانهم ، وفي آية أخرى قال : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العِبْءَ عن رسوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه في دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان .

لكن حِرْص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولي عليه لخَّصها في قوله : « والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فالنبي صلى الله عليه وسلم كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كذلك ، حتى أعداؤه الذين

وقفوا في وجه دعوته كان إلى آخر لحظة في الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعالجهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً » .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْل هؤلاء حال كفرهم في معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكِّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس . . . } .

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106)

معنى { فَرَقْنَاهُ } أي : فصّلناه ، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث { على مُكْثٍ } على تمهُّل وتُؤدَة وتأنٍّ .

وقد جاءت هذه الآية للردِّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً . . } [الفرقان : 32]

وأول ما نلحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هُمْ فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن . وهاهم الآن يُقِرُّون بأنه نزل عليه ، أي : من جهة أعلى ، ولا دَخْلَ له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذي نزل عليه القرآن .

ثم يتولّى الحق سبحانه الردّ عليهم في هذا الاقتراح ، ويُبيّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

1 . { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . } [الفرقان : 32]

{ كَذَلِكَ } أي : أنزلناه كذلك على الأمر الذي تنتقدونه من أنه نزل مُفرّقاً مُنجّماً حسْب الأحداث { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . } [الفرقان : 32] لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتعرّض لكثير من تعنّتات الكفار ، وسيقف مواقف مُحرِجة من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو في كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفي نزول الوحي عليه يَوْماً بعد يَوْم ، وحسْب الأحداث ما يُخفّف عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعاني من مصاعب ومَشَاقِّ الدعوة وفي استدامة الوحي ما يصله دائماً بمَنْ بعثه وأرسله ، أما لو نزل القرآن جملةً واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولَفقد رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحي ، وهذا هو الجانب الذي يتعلق في الآية برسول الله .

2 . { وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان : 32] أي : نَزَّلْنَاه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشيء . كما نقول : رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة في التنزيل تُيسِّر للصحابة حِفْظ القرآن وفَهْمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسَّر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه الميْزَة خاصة بالصحابة الذي حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجَزئ القرآن للحفظة ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ الله تلو الآخر .

3 . { وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان : 33]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين سيعترضون عليه ، ويحاولون أن يستدركوا عليه أموراً ، وإن يتهموا رسول الله ، فلا بُدَّ من الردّ عليهم وإبطال حُجَجهم في وقتها المناسب ، ولا يتأتّى ذلك إذا نزل القرآن جملة واحدة .

{ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ } أي : بشيء عجيب يستدركون به عليك { إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق } أي : ردّاً عليهم بالحق الثابت الذي لا جدالَ فيه .

وإليك أمثلة لِردِّ القرآن عليهم رَدّاً حيّاً مباشراً .

فلما اتهموا رسول الله وقالوا : { إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } [الإسراء : 47] رَدَّ القرآن عليهم بقوله تعالى : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 1-4]

ولما قالوا : { مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق . . } [الفرقان : 7] يردُّ القرآن عليهم بقوله تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق . . } [الفرقان : 20]

فليس محمد صلى الله عليه وسلم بدعاً في هذه المسألة ، فهو كغيره من الرسل الذين عُرِفت عنهم هذه الصفات ، وفي هذا ما يؤكد سلامة الأُسْوة في محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه بشر مثل الذين أرسلنا إليهم من قبله ، إنما لو كانت في محمد خاصية ليست في غيره ربّما اعترضوا عليها واحتجُّوا بها .

لذلك كان من أدب النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه ومع صحابته أنه قال : « إنما أنا بشر يرد عليَّ أي بالوحي فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

فانظر إلى أيّ حدٍّ كان تواضعه صلى الله عليه وسلم ؟

ولما اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : { أفترى عَلَى الله كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ . . } [سبأ : 8] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : { أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [هود : 13]

ثم يتنزّل معهم في هذا التحدي ، ويترأف بهم : { وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ . . } [البقرة : 23]

ثم يناقشهم في هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والنموذج العالي للحوار : { قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تُجْرِمُونَ } [هود : 35]

وفي آية أخرى يقول : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25]

فانظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدّث عن نفسه يقول { أَجْرَمْنَا } وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجرام ، بل يقول : { وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } .

هذا كله من الحق الذي جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملةً واحدة ، أكان من الممكن الردُّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا؟ إنْ كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرئة ساحته في مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع ، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً لا يتغير إلى يوم القيامة ، ولن يُنسَخ منه حرف واحد كما حدث في الكتب السابقة عليه .

فإن نظرتَ إلى العقائد وجدتَ الكلام فيها قاطعاً لا هوادةَ فيه ، يأتي هكذا قَوْلاً واحداً ، فالله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن الملائكة والبَعْث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف في الحديث عن العادات التي أَلِفها الناس في حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطُّف وتدرُّج ، ولا يناسبها القصْر والقَطْع . ألم تَرَ إلى المشرّع سبحانه حينما أراد أنْ يُحرّم الخمر ، كيف تدرّج في تحريمها على عدة مراحل حتى يجتثّ هذه العادة التي تحكّمتْ في نفوس الناس وتملَّكتهم ، أكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة؟

انظر كيف لفتَ أنظارَ القوم بلُطْف إلى أن في الخمر شيئاً ، فقال تعالى : { وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً . . } [النحل : 67]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكأن الله يُبيّت للخمر شيئاً ، لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السَّكَر فلم يَصِفْه بالحُسْن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً في الخمر؛ لأنه يتلف نعمة الله ويُفسِدها على أصحابها .

ثم يُحَوّل هذه المسألة إلى عِظَة وإرشاد ، فيقول : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . } [البقرة : 219]

وهكذا قرَّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالأمر مازال عِظَة

ونصيحة لا تشريعاً مُلْزماً ، إلا أنه مهَّد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلّى وهو مخمور لا يدري ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه مَنْ بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . } [النساء : 43]

وبذلك أطال مدَّة الامتناع عن شُرْب الخمر ، فالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ، فإذاً لا بُدَّ من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كافٍ ، وهكذا عوَّدهم الامتناع ودرَّبهم على الصبر عن هذه الآفة التي تمكَّنتْ منهم . ثم يتحيَّن الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم في مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبتْ الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالتْ دماؤهم ، وعندما ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه : يا رسول الله بيّن لنا في الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحي على رسول الله بالحكم القاطع : { ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه } [المائدة : 90]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التي تمكّنتْ من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة؟

إن الحق تبارك وتعالى بنزول القرآن مُفَرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث ، كأنه يُجري مشاركة بين آيات التنزيل والمنفعلين بها الذين يُصِرّون على تنفيذ مطلوباتها ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال ، كما قال تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . . } [المائدة : 101]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر . . } [البقرة : 219]

{ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ . . } [البقرة : 219]

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة . . } [البقرة : 189]

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال . . } [طه : 105]

إذن : وراء نزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حِكَم بالغة يجب تدبُّرها ، هذه الحِكَم ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملةً واحدةً .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا . . . } .

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107)

قوله تعالى : { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا . . } [الإسراء : 107] آمنوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نَهْي . والأمر والنهي نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهي أنْ

تطلبَ من الأدنى ألاَّ يفعل ، فإنْ كان الطلب من مُساو لك فهو التماس ، وإنْ كان من أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحيّ العبارة؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهي ، فهل نقول في قوله تعالى : { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا . . } [الإسراء : 107] أنها للتخيير ، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا ، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً؟

نقول : الأمر والنهي هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال : ذاكر أو لا تذاكر ، أنت حر؛ لاشك أنك لا تقصد النهي عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة .

فقوله : { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا . . } [الإسراء : 107] للتسوية ، كما قال : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . } [الكهف : 29]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذي يفعل الأمر أو النهي يكون طائعاً ، بل المراد هنا التهديد أو التسوية ، فسواء آمنوا أو كفروا؛ لأن الحق سبحانه جعل في ذلك عزاءً لرسوله صلى الله عليه وسلم في إيمان أهل الكتاب .

{ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ . . } [الإسراء : 107] أي : اليهود والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية ، واستمعوا للتوارة والإنجيل ، ونقلوها إلى غيرهم من المعاصرين للقرآن فهؤلاء شاهدون بأن الرسول حَقٌّ بما عندهم من بشارة به في التوراة والإنجيل؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام؛ لأنهم يعلمون عِلْم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام ، وكان من علماء اليهود ، وكان يعلم أوصاف رسول الله وزمن بَعْثته؛ لذلك قال : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشدّ .

ولما اختمر الإسلام في نفسه ذهب إلى رسول الله وصارحه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : « يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْتٌ فإن أعلنتُ إسلامي الآن قالوا فيَّ ما ليس فيَّ ، فاسألهم عني وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون في ابن سلام؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا فأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فإذا بهم يذمونه ويتهمونه بأخسِّ الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أَقُلْ لك إنهم قوم بُهْتٌ » .

إذن : ففي إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه في كتبهم وعرفوا موعد بعثته وأنه حق ، في إيمان هؤلاء عَزَاءٌ لرسول الله حين كفر به قومه وكذّبوه

لذلك قال تعالى : { قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب } [الرعد : 43]

ونحن مُكْتفون بشهادة هؤلاء؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التي تلقوْهَا ، فحينما بشَّرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يُحرِّفوها ، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبي الجديد الذي سيظهر فيها ، لقد كانوا يقولون لكفار مكة : لقد أظلَّ زمان نبي جديد نتبعه قبلكم ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم .

{ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين } [البقرة : 89] إلا أن الله أبقى للحق خلية ، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ، وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى : { إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ . . } [الإسراء : 107] أي : القرآن { يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء : 107]

كلمة { يَخِرُّونَ } توحي بأنهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف ، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر الإيمان في نفوسهم . ليس ذلك وفقط ، بل ويخرون { لِلأَذْقَانِ } جمع ذَقَن ، وهي أسفل الفَكِّ السفلي ، ومعلوم أن السجود يكون على الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ . . . } .

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108)

أي : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذي وَفّى بوعده في التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حقق لنا وَعْده وأدركناه وآمنا به ، وكأن هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم : { وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ . . . } .

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذي نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به . أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول : { وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ . . } [الإسراء : 109] فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى . . . } .

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110)

{ ادعوا } اذكروا ، أو نادوا ، أو اطلبوا { الله } عَلَم على واجب الوجود سبحانه ، ومعنى : علم على واجب الوجود أنها إذا أُطْلِقَتْ انصرفتْ للذات الواجبة الوجود وهو الحق سبحانه ، كما نُسمِّي شخصاً ، فإذا أُطْلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى .

والأسماء عندنا أنواع كثيرة : إما اسم ، أو كُنْية ، أو لَقَب .

الاسم : وهو أغلب الأعلام ، ويُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به .

والكُنْية : وتُطلَق على الإنسان ، وتُسبَق بأب أو أم أو ابن أو بنت ، كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب : وصف يُشْعِر بالمدح أو الذم ، كما نقول : الصِّديق ، الشاعر ، الفاروق .

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفه وَصْفاً يُعْرف به ، كما يحدث أن يألف شخص أن يسمي أولاده جميعاً : محمد فالتسمية في هذه الحالة لا تُشخِّص ولا تُعيِّن المسمّي؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول : محمد الكبير ، محمد الصغير . محمد المهندس . فإذا أُطلِق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنّا نحن نُسمِّي أولادنا : فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التي قال عنها : الأسماء الحُسْنى ، وكلمة (حُسْنى) أفعل تفضيل للمؤنث ، مثل : كبرى . والمذكر منها أحسن . لكن لماذا وَصَف أسماءه تعالى بالحسنى؟

الاسم يُبيِّن المسمّي ، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمَّى الذي أُطلقت عليه ، فقد نُسمِّي شخصاً « سعيد » وهو شقي ، أو نسمي شخصاً « ذكي » وهو غبي . وهذا ليس بحَسنٍ في الأسماء ، الحسَن في الاسم أنْ يطابق الاسم المسمَّى ، ويتوفّر في الشخص الصفة التي أُطلِقت عليه ، فيكون الشخص الذي سميناه « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حسناً ، لكنه لا يأخذ الحُسْن الأعلى؛ لأن الحُسن الأعلى لأسماء الله التي سَمّى بها نفسه ، فله الكمال المطلق .

فهذه إذن لا تتأتَّى في تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف؛ لذلك قلنا :

وَأَقْبَحُ الظُّلْمَ بَعْد الشِّرْكِ منزلةً ... أنْ يظلم اسمٌ مُسمّى ضِدّه جُعلاَ

فَشَارِعِ كعِمَادِ الدين تَسْمِية ... لكِنْه لِعِنَادِ الدِّينِ قَدْ جُعِلاَ

فالاسم قد يظلم المسمَّى كما حدث أنْ سَمَّوْا الشارع (عماد الدين) ، وهذا الشارع كان في الماضي بُؤْرَة للفِسْق والفجور ، وما أبعده سابقاً عن هذه التسمية .

فلفظ الجلالة (الله) عَلَم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطلِقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول فلان العزيز في قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمَنْ يتصل به ، إنما لو قُلْت : النافع على إطلاقه فهو الله سبحانه وتعالى .

لذلك؛ حَلَّتْ الصفات محلَّ اسم الذات { الله } ؛ لأنها إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فأسماءُ الله الحُسْنى هي في الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول في مقابله الذليل ، والحيّ اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعني يُعِزّ غيره ، ومقابلها المذلّ ، والضَّارّ مقابلها النافع ، والمحيي مقابلها المميت وهكذا . . إنْ وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسمٌ لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند السَّتَّار وهي صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول الفضَّاح ، لماذا؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أنْ يتخلق خَلْقه بهذه الصفة ، وأنْ يُرَبِّب صفة الستر عند الناس للناس ، فلو علم الناس ، عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا في كل ما يأتي من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة من الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطي للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير؛ لذلك الله تعالى يُعصَى ويحب أن يُستَر على عبده العاصي؛ لكي يستمر دولاب الحياة؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الذِي مَا سَاءَ قَطُّ ... وَمَنْ لَهُ الحُسْنى فَقَطْ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه حتى تستمر حركة الحياة؛ لأن الإنسان ابنُ أغيار ، وقلبه سريعاً ما يتقلب ، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيَّرْتُ لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كُلٌّ مِنّا بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أي : لو تكشفتْ الأسرار ، وعرف كُلٌّ منكم عَيْب أخيه ما دفنتم مَنْ يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : { قُلِ ادعوا الله . . } [الإسراء : 110] فاختار هذا الاسم بالذات { الله } العَلَم على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدلُ على صفة معينة ، لكنه يحمل في طياته كل صفات الكمال فيه ، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر في القدرة ، والحكيم في

الحكمة ، والقابض في القبض ، والعزيز في العِزّة . فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن { الله } هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك في الحديث النبوي الشريف : « كُلُّ شيء لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر » .

لماذا؟ لأنك حين تُقدِم على أيّ فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ، إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبِل على العمل لا تَقُل : يا حكيمُ يا قادرُ يا عليمُ ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفي أن تقولَ في الإقدام على الفعل : باسم الله .

لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكلِّ صفات الكمال .

{ أَوِ ادعوا الرحمن . . } [الإسراء : 110] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهِر هذه الصفة لعباده حتى في أسماء الجبار والقهار؛ لأنها من خَدَم الرحمة ومن أسبابها؛ لأن العبد إذا عرف لله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكأنه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب . . } [البقرة : 179] لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل . وفي الأثر : « القتل أنْفَى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجِب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذي يقهره الله مرحوم أيضاً؛ لأنه ما دام قال : أنا قهار . فاحذرني ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم { الرحمن } لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة في حركة الحياة ، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهيّ في دنيا الناس أنْ يعيشَ المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هي الغالبة في كل التشريع ، وهي السِّمَة العامة ، أَلاَ ترى قوله تعالى : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن } [الرحمن : 1-2]

فالقرآن الذي نزل لِيُنظّم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى في سورة الرحمن : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }

[الرحمن : 13] والآلاء هي النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ } [الرحمن : 35] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التي تدلُّ على النعمة؟

ولو تدبَّر القوم ما اعترضوا؛ لأن في الناس والتحذير منها والتخويف بها نعمة ، كأن القرآن يقول لك : إياك أنْ تفعل ما يُوجِب النار والشُّواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده؟ أليست رحمة بهم؟ وماذا كنتم ستقولون إنْ لم يُقدِّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله { الرحمن } في قوله تعالى : { ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً } [الفرقان : 59]

أي : بعد أن خلق الخَلْق كل بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش؛ لأن الاستواء على العرش يعني أن كل شيء تَمَّ له سبحانه خَلْقاً وإيجاداً ، وانتهى إلى الجلوس على العرش ، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أنْ يستتبّ لهم الأمر ، فجلوس الملك على العرش يعني أنه الأوحد الذي لا يعارضه أحد .

فالحق سبحانه ينبهنا بقوله : { ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً } [الفرقان : 59] واختار صفة الرحمة لِيُوحِي لنا أن قعوده على العرش لا يعني القَهْر والجبروت ، إنما قعد على عرشه رحمةً بكم ، قعد على العرش ليُنظّم حياتكم ، ويرحم بعضكم ببعض ، فتسعدوا بالحياة ، فالاستواء هنا لا استواءَ قهر وغلبة ، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم .

وفي آية أخرى قال : { الرحمن عَلَى العرش استوى } [طه : 5]

وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش في سبعة مواضع في كتاب الله ، نظمها الناظم في قوله :

وَذِكْرُ اسْتواء الله في كَلماتِهِ ... علَى العَرْشِ فِي سَبْع مَواضِعَ فَاعْدُدِ

فَفِي سُورَة الأعرافِ ثمة يُونُس ... وفي الرعْدِ مع طَه فلْلعَدّ أكدِ

وَفِي سُورة الفُرْقانِ ثمة سَجْدة ... كَذَا فِي الحديدِ افْهَمُوا فَهْم مؤيَّد

وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هي في خدمة رحمانيته ، لأنه يُخَوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا في المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله في الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهي إذن الرحمانية المستولية والسمة العامة لمنهج الله في الدنيا والآخرة .

وفي الحديث « في آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . . » ولم يقُلْ : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا آثر صفة الجبار في مجال المغفرة؟

قالوا : لأن المغفرة تُوحِي بوجود ذنب ، والذنب يقتضي العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلَّبتْ صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها؟ لا بل تشفع صفة

الغفار عند صفة الجبار : الموقف لكِ أيتها الصفة ، لكن نستسمحك في أن نشفع في هؤلاء ، فكأن صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسِّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : { قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى . . } [الإسراء : 110] فأيُّ اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حُسْنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء في الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإنْ أردت عِلْماً فقُلْ : يا عالم علِّمني ، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ : يا قوي قَوِّني ، وإنْ أردتَ العزة فَقُلْ : يا عزيز أعِزَّني وهكذا . . فإن أردتَ الاختصار فقُلْ : يا الله . تكفيك كل شيء .

ثم يقول تعالى : { وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً } [الإسراء : 110] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة { وَلاَ تَجْهَرْ } فالجهر منهيٌّ عنه ، وكذلك { وَلاَ تُخَافِتْ } أي : لا تُسِرَّها بحيث لا يَسْمعك من خلفك ، وهذا منهيّ عنه أيضاً .

فكِلاَ الطرفين مذموم ، وخَيْر الأمور الوسط .

ونُوضِّح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهيّاً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أَوْلَى ، فلا يليق أبداً رَفْع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسبِّبه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِذَا قُرِىءَ القرآن فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف : 204]

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة في الميكروفون تلزم الناس بالإنصات ، وتُوقِعهم في الإثم والحرج ، أو تعطل مصالحهم ، ولعل غيرك في هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستغفر ، أو يُسبِّح أو يصلي ، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك؟ هذا لا يجوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حُرّ فيما ينتقّل به ، ولا تكُنْ من الذين قال الله في حقهم : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف : 103-104]

كالذي يُشعِل الميكروفون قبل صلاة الفجر ، ويأخذ في إنشاد كلام ما نزل به الشرع ، يزعج به الناس ، ويُقلق به المريض ، ولا يراعي للناس حُرْمة . فمتى يفيق المسلمون؟ ومتى ينتبهون إلى هذه البدع التي تُشوِّش على الناس وتُفسِد عليهم عبادتهم؟

أما إنْ كان رَفْع الصوت بالقرآن لغرض دنيوي ومكْسَب شخص ، وأن نجعل الأمر مَعْرضاً للأصوات ، ومِضْماراً للسباق ، إنْ كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله ، فقد

دخل صاحبه في شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : { وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً } [الإسراء : 110]

أي : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبيل الوسطية التي جاء بها الشرع ، وتأسّ برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً فوجد أبا بكر رضي الله عنه يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سأله . قال : يا رسول الله ، أناجي ربي وهو عالم بي ، فلما ذهب إلى عمر رضي الله عنه وجده يقرأ بصوت عالٍ ، فلما سأله قال : يا رسول الله أزجر به الشيطان . عندها أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أنْ يرفع صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً .

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أُمِرْنَا بها حتى في الدعاء ، كما جاء في قوله تعالى : { واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول } [الأعراف : 205]

فكلمة : { بَيْنَ ذلك . . } [الإسراء : 110] البينية هذه تكاد تشيع في كل أحكام الدين؛ لأن القرآن جاء لأمة وسط بالأمور الوسط في كل شئون الحياة ، ففي قمة المسائل وهي الأمور العَقَدية مثلاً يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنكِرون وجود الإله ومن يقول بآلهة متعددة ، فينفي هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفي الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً }

[الفرقان : 67]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة ، ويَرْقَى بحياة الفرد ، وقد لخّص هذا المنهج الاقتصادي في قوله تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } [الإسراء : 29] فالممسك المقتّر الذي يقبض يده على الإنفاق يتسبّب في رُكود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفي التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل مَا معه ، ولا يُبقي على شيء يرتقي به في الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذي فوّتَ عليك فرصة الترقّي مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } .

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)

فما المحمود عليه في الآية؟

الحق سبحانه يقول : { الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً . . } [الإسراء : 111]

فكَوْنه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أنْ يحمدوه عليها ، فإنْ كان له ولد فسوف يخصُّه برعايته دون باقي الخَلْق ، فقد تنزّه سبحانه عن الولد ، وجعل الخَلْق جميعهم عياله ، وكلُّهم عنده سواء ، فليس من بينهم مَنْ هو ابن لله أو مَنْ بينه وبين الله قرابة ، وأحبّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا ينفرد الخَلْق بكل حنان ربهم وبكل رحمته .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذَّكَر ، خاصة لأمرين : أن يكون الولد ذكرى وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر :

أَبُنيّ يَا أنَا بَعْدَمَا أقْضِي ... والحق سبحانه وتعالى باقٍ دائمٌ ، فلا يحتاج لمَنْ يُخلِّد ذكراه ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

أو يكون الولد للعِزْوة والمكاثرة والتقوّى به من ضعف ، والحق سبحانه وتعالى هو الغالب القهار ، فلا يحتاج إلى عِزْوة أو كثرة ، لذلك يأمرنا سبحانه أن نُمجِّده لأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، والمتأمل في حال الملوك والسلاطين يجد أكثر فسادهم إما من الولد وإما من الصاحبة .

ثم يقول سبحانه : { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك . . } [الإسراء : 111]

وهذا أيضاً من النعم التي تستوجب الحمد ، ولك أنْ تتصوّر لو أن لله تعالى شريكاً في المُلْك ، كم تكون حَيْرة العباد ، فأيُّهما تُطيع وأيهما تُرضِي؟

لقد أوضح لنا الحق سبحانه هذه المسألة في هذا المثل الذي ضربه لنا : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . } [الزمر : 29]

لذلك ، ففي أعراف الناس وأمثالهم يقولون : (المركب التي بها ريسين تغرق) وكَوْنه سبحانه واحداً لا شريك له يجعلك تطمئن إلى أمره ونَهْيه فتُطيعه وأنت مطمئن ، فأوامره سبحانه نافذة لا مُعقِّب لها ، ولا مُعترِض عليها ، فليس هناك إله آخر يأمرك بأمر مخالف ، أليست هذه نعمة تستوجب الحمد؟

وأيضاً فإن الحق سبحانه يقول : { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل . . } [الإسراء : 111]

الوليّ : هو الذي يليك ، وأنت لا تجعل أمرك إلا لمن تثق به أنه يجلب لك نَفْعاً ، أو يدفع عنك ضُرّاً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يُقوّي ضعفك ، فإذا لم يكُنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ، وتحتمي برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له وليٌّ يلجأ إليه ليعزه؛ لأنه سبحانه العزيز المعِزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى : { وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } [الإسراء : 111]

لأن عظمة الحق سبحانه في نفس المؤمن أكبر من كل شيء ، وأكبر من كل كبير؛ لذلك جُعلتْ (

الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ، فلا بُدَّ أن تُكبِّر الله ، وتجعله أكبر مِمّا دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت في أيّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملي ، وإنْ ناداك وأنت في حضرة عظيم ، فقل : الله أكبر من أيِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأن تُقدِّم أوامره ونواهيه على كل أمر ، وعلى كل نهي .

ولا تنسَ أنك إن كبَّرْتَ الحق سبحانه وتعالى أعززْتَ نفسك بعزة الله التي لا يعطيها إلا لمَنْ يخلص العبودية له سبحانه ، فَضْلاً عن أن العبودية لله شرفٌ للعبد ، وبها يأخذ العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فهي مذمومة مكروهة ، وهي مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد خير عبده .

وصدق الشاعر حين قال :

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأنِّي عَبْدٌ ... يَحْتفِي بي بلاَ مَواعِيدَ رَبُّ

هُوَ في قُدْسِهِ الأعَزّ وَلكِنْ ... أَنَا أَلْقَي متَى وأَينَ أحِبُّ

فكم تتحمل من المشقة والعنت في مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، أما في مقابلة رب العزة سبحانه ، فبمجرد أنْ آمنتَ به أصبح الزمام في يدك تلقاه متى شئتَ ، وفي أيِّ مكان أردتَ ، وتُحدّثه في أيّ أمر أحببتَ ، فأيُّ عِزَّة بعد هذا؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، حيث قال تعالى : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . } [الإسراء : 1]

فالعزة في العبودية لله ، والعزة في السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، أَلاَ ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الذِي تَجْتَوِيه ... مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فِيهِ نَجَاةٌ

إذن : فكبِّر الله تكبيراً وعَظِّمه ، والتجئ إليه ، فَمن التجأ إلى الله تعالى كان في معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كَيْد الآخرين وقهرهم . وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذي يعتدي عليه أقرانه إنْ سار وحده ، فإنْ كان في يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك إذن أن تكون دائماً في معيّة ربك تأمن كيد الكائدين ومكْر الماكرين ، ولا ينالك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشيء فكأنما يقول له : أبتليك بنعمتي لتأخذ من ذاتي ، لأن الصحيح المعَافَى إنْ كان في معية نعمة الله ، فالمبتلى في معية الله ذاته .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا بن آدم مرضْتُ فلم تَعُدْني ، قال : يا رب وكيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه ، أما علمتَ أنك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده » .

فالمريض الذي يأنس بزائريه ويسعد بهم ويرى في زيارتهم تخفيفاً من آلامه ومواساة له في شدته ، ما باله إن أنس بالله وكان في جواره وكلاءته ، والله الذي لا إله إلا هو لا يشعر بوخْز المرض أبداً

، ويستحي أن يتأوّه من ألم ، ولا ييأس مهما اشتد عليه البلاء؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله؟ وكيف ييأس والله تعالى معه؟

إذن : كبِّره تكبيراً .

أي : اجعل أمره ونَهْيه فوق كل شيء ، وقُلْ : الله أكبر من كل كبير حتى الجنة قل : الله أكبر من الجنة . أَلاَ ترى قَوْل رابعة العدوية :

كُلُّهُمْ يعبدُونَك من خَوْف نارٍ ... ويَرَوْن النجاةَ حَظّاً جَزِيلا

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنَانَ فَيَحْظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُون سَلْسَبِيلا

لَيْسَ لِي بالجنانِ وَالنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أَبْتغِي بِحُبّي بَدِيلاً

وفي الحديث القدسي : « أَولَوْ لَمْ أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد؟ » .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيّ شيء ، حتى إن كانت الجنة ، ففي آخر سورة الكهف يقول تعالى : { فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } [الكهف : 110]

فلم يَقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه ، أو جنة ربه ، أو نعيم ربه ، إن المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم ، بل يطمع في لقاء المنعم سبحانه ، وهذا غاية أمانيه .

وفي حديث آخر يقول الحق سبحانه للملائكة : « أما رأيتم عبادي ، أنعمتُ عليهم بكذا وكذا ، وأسلب عنهم نعمتي ويحبونني » .

وبهذه الآية خُتِمَتْ سورة الإسراء ، فجعلنا الحق سبحانه نختمها بما أنعم علينا من هذه النعم الثلاث ، وليس هذه هي كل نعم الله علينا ، بل لله تعالى علينا نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هي قِمة النعم التي تستوجب أنْ نحمده عليها .

فالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً؛ لأنه لم يلد ولم يولد وهو واحد أحد ، والحمد لله الذي لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذي لم يكُنْ له وليٌّ من الذل لأنه القاهر العزيز المعز ، ولهذا يجب أن نُكبِّر هذه الإله تكبيراً في كل نعمة نستقبلها منه سبحانه .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1)

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذي أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا في الذات ، ولا في الأفعال ، ولا في الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ،

والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه في المعنى العام : ثناء وشُكْر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت في المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص ، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدي لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فقَوْلُ الحق : { الحمد لِلَّهِ } بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إنَّ حمدك لأيِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو إذا سَلْسَلْتَهُ حَمْدٌ لله تعالى الذي أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التي أمدّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأيِّ إنسان في الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة { الحمد لِلَّهِ } هذه هي الصيغة التي علمنا الله أنْ نحمدَهُ بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخَلْق في الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيي والأُمّي . فتحمّل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول { الحمد لِلَّهِ } البليغ يقولها ، والعيي يقولها ، والأُمّي يقولها .

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم وهو يحمد الله ويُثني عليه : « سبحانك لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

فإنْ أردنا أنْ نُحصي الثناء عليك فلن نستطيع؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقولَ ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً في الحمد لله نعمة كبرى في ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما عَلِمنا من الحمد لله ، والحمْد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما عَلِمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعتَ الحمدَ لوجدته سلسلةً لا تنتهي ، حَمْد على حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل الله محموداً دائماً ، يظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن :

{ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } [الفاتحة : 2] { الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام : 1]

{ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب . . } [الكهف : 1] { الحمد للَّهِ الذي لَهُ مَا فِي

السماوات وَمَا فِي الأرض وَلَهُ الحمد فِي الآخرة } [سبأ : 1] { الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ . . } [فاطر : 1]

ولكن ، لكُلِّ حَمْد في كل سورة حيثية خاصة ، فالحمد في الأولى لأن الله ربُّ العالمين ، وربٌّ يعني الخالق والمتولي للتربية ، خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وتولّى تربية عباده ، فهو رَبٌّ لكل العالمين؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذي خلق العالمين ، وأمدَّهم بفضله .

وفي الثانية : نحمده سبحانه الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نِعَمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حياتهم بالقوت ، ويستبقي نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور مِنَ نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فَلِلْظُّلمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للسعي والحركة ، ولا يمكن لسَاعٍ أنْ يسعى ويجدّ في عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه ، فتقابُل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم في ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم في نور دائم .

وفي السورة الثالثة من السور التي افتتحها الحق سبحانه ب { الحمد لِلَّهِ } والتي نحن بصددها أراد الحق سبحانه أنْ يُوضّح أنه لم يُربِّ الخلْق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيمية ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخَلْق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسْب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى : { الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب . . } [الكهف : 1]

فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذي يجمع كل القيم . وقلنا : إن الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أنْ يخلق الخَلْق وضع له النماذج التي تُصلِح حركة الحياة ، كما قال تعالى : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان } [الرحمن : 1-4]

فتعليم القرآن جاء قبل خَلْق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقَهم ، لعِلْمه سبحانه بطبيعة خَلْقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذي يعلم مهمتها ويُحدد قانون صيانتها ، فالكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو المهمة الأساسية ، فيجب أنْ تُوطّن عليها نفسك ، وتعلَم أنه المنظِّم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : { على عَبْدِهِ . . } [الكهف : 1] كما قلنا : في سورة الإسراء : إن العبودية كانت حيثية الرِّفْعة في الإسراء والمعراج ، فقال سبحانه : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . } [الإسراء : 1]

فالعبودية رفعتْه إلى حضرته تعالى؛ لأنه كان عبداً بحقّ ، وهذا يعني إنزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرَى به ، وحمل منهج الله أولاً فالتفتَ لربه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه ،

فأخلص هو أولاً في العبودية ، وتحمَّل ما تحمّل ، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به ، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزلَ بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذي سعى إليه بالمعراج .

إذن : فالنبي تناول ليناوِل ، وتناول لأنه أخلصَ العبودية ، فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه ، وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أن يلتقي بالله ، فليدخل في الصلاة .

و { الكتاب . . } [الكهف : 1] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتيبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أي : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى { الكتاب } وهو لم يكتمل بعد؟

نقول : الكتاب يُطلَق ويُرَادُ به بعضه ، كما في قوله تعالى : { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ } [القيامة : 18]

فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً ، والسورة تُسمَّى قرآناً ، والكل نُسمِّيه قرآناً .

أو : يكون المراد أَنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله بعد ذلك مُنَجَّماً حَسْب الوقائع ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : { وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } [الكهف : 1] أي : جعله مستقيماً ، لا عِوجَ فيه ، كما قال في آية أخرى : { قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ . . } [الزمر : 28] والاعوجاج ، أن يأخذ الشيءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً ، أما الاستقامة فهي الامتداد في نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس في الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم في حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخَلْق متكاملين ، فكُلٌّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرين ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقومَ بذاته أو يستغني عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس في الحياة ، وأنْ يتكاملوا .

هذا التواجه إنْ لم يُنظِّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوي كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم .

إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلٌّ مِنّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهي هو الطريق المستقيم الذي يضمن الحركة في الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً في قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً } [طه : 105-107]

أي : أرضاً مستوية خالية من أي شيء { لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً } [طه : 107] أي : مستقيمة { ولا أَمْتاً } [طه : 107] .

أي : مُسْتوية لا يُوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم ، وهذا ما

يُسمّيه رجال المرور (العقبة) .
ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم : { قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين . . . } .

قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2)

قوله : { قَيِّماً } أي : القرآن ، وقالوا : قيِّم يعني مستقيم ، كأنها تأكيد لقوله : { وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } [الكهف : 1] لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها في الطرق المستوية المرصوفة ، والتي تراها للوَهْلة الأولى مستقيمة تماماً ومستوية ، فإذا ما نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب؛ لذلك أكّد الاستقامة بقوله : { قَيِّماً } [الكهف : 2]
ومن معاني القَيِّم : المهيمن على ما دونه ، كما تقول : فلان قَيِّم على فلان أي : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن إذن لاعِوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : { وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة : 48]
ومنه قوله تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم } [الروم : 43] أي : المهيمن على الأديان السابقة .
ثم يقول تعالى : { لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ } [الكهف : 2]
وهذه هي العِلّة في الإنزال .
والإنذار : التخويف بشَرٍّ قادم ، والمنْذَر هنا هم الكفار؛ لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملَكَة العربية وللذّهْن أنْ يعملَ ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلّ شيء هكذا على طرف الثُّمام أي قريباً سهل التناول .
ثم ضَخّم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وفقط بل { مِن لَّدُنهُ } ، والعذاب يتناسب مع المعذِّب وقوته ، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحدٍ به ، ولا مهربَ لأحد منه .
ثم يقول تعالى : { وَيُبَشِّرَ المؤمنين } [الكهف : 2] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، وتلاحظ أنه في البشارة ذكر المبشَّر { المؤمنين } ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن؛ لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدها : { مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً } .

مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3)

أي : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لا بُدّ أنْ يوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ماكثون فيه أبداً؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المنعِم سبحانه في الآخرة ، لقد أَلِفَ الناس الأجر على أنه جُعِل على عمل ، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أَجْر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإنْ ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء؛ لأنه المنصِف المتفضّل ، وإنِ انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة؛ لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أنْ تتركه ، وإما أنْ يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً } .

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4)

والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصي ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله : { وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً } [مريم : 88-92]

إنها قمة المعاصي أنْ نخوضَ في ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهوْلِها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ . . . } .

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5)

فهذه القضية التي ادَّعَوْها ، وهذه المقولة التي كذبوها على الله من أين أَتَوْا بها؟ الحقيقة أنهم ادعَوْها ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتي ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له؛ لذلك يقول تعالى : { مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ . . } [الكهف : 5]

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به؛ لأنه مستور عنك ، وإما

لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . } [الكهف : 5]

{ كَبُرَتْ } أي : عَظُمَتْ وتناهتْ في الإثم؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرَتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

{ كَلِمَةً } الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو في ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عَبَّرَتْ عن قولهم : { اتخذ الله وَلَداً } [الكهف : 4] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : { حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا } [المؤمنون : 99-100] فسمَّى قولهم هذا { كَلِمَةً } .

ومنها قوله تعالى : { قُلْ ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله . . } [آل عمران : 64] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : { تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . } [الكهف : 5] أي : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها في نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا في عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها أي : لا نقدر على النطق بها فقال صلى الله عليه وسلم : « ذاك صريح الإيمان » .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : { إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً . . } [الكهف : 5] أي : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب أَلاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذِهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتي النسبة في ذِهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال في خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمّى نسبة ذِهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شَخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق .

فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كأنْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجِد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائي الذي لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث في المستقبل؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

والتدقيق العلمي يقول : الصدق الحقيقي أنْ تطابقَ النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدتَ شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخْبِر .

وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى : { إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقتْ معتقدهم؟ لم توافق معتقدهم؛ لذلك شهد الله أنهم كاذبون؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادي . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أنْ يُواطِئ القلب اللسان ، وهم شهدوا بألسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لَمّا قالوا { اتخذ الله وَلَداً } ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهي نسبة كاذبة ، فقال تعالى : { إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً . . } [الكهف : 5]

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم لِيُخفِّف عنه ما يلاقي من متاعب وعناد وسَفَه في سبيل الدعوة فيقول تعالى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ . . } .

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)

ومعنى : { بَاخِعٌ نَّفْسَكَ . . } [الكهف : 6] أي : تجهد نفسك في دعوة قومك إجهاداً يُهلكها ، وفي الآية إشفاق على رسول الله؛ لأنه حَمّل نفسه في سبيل هداية قومه ما لا يحمله الله ويلزم ما لا يلزمه ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يدعو قومه فيُعرضوا ويتولَّوْا عنه فيُشيّع آثارهم بالأسف والحزن ، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز ، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق ، فكأن رسول الله لحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد يُهلك نفسه { أَسَفاً } .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام : { ياأسفى عَلَى يُوسُفَ . . } [يوسف : 84] وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضباً من عبادتهم العجل : { فَرَجَعَ موسى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً . . } [طه : 86]

وقد حدّد الله تعالى مهمة الرسول وهي البلاغ ، وجعله بشيراً ونذيراً ، ولم يُكلّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق ، ففي الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول الحق سبحانه : { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا . . . } .

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7)

وكأن هذه الآية تعقيب على سابقتها ، وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة إذن قريبة فلا داعيَ لأنْ يُهلِك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشَه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقي؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشيء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدِّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا . . } [الكهف : 7] أي : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هي الزخرف الذي يبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة في قوله تعالى : { واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح . . } [الكهف : 45]

فإياك أنْ يأخذك هذا الزخرف؛ لأنه زَهْر سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً .

وقوله : { لِنَبْلُوَهُمْ . . } [الكهف : 7] البلاء يعني : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفِق في الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذي يتنبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعني هذا أن نلغي الاختبارات في مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهداً واقعياً على مَنْ يخفق .

إذن معنى : { لِنَبْلُوَهُمْ . . } [الكهف : 7] أي : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً } .

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)

الصعيد : هو طبقة التراب التي تظهر على وجه الأرض ، ولا نباتَ فيها و { جُرُزاً } هي الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه ، يقول تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ } [السجدة : 27]

وما دام الأمر كذلك والدنيا زُخْرف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدَعْهم لي أختبرهم ، وأُجَازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً } .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9)

وقد وردتْ قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أنْ يُحرجوا رسول الله ، ويُروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أهل الكتاب في المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه في كتبهم .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبي الجديد ، يقولون : لقد أطلَّ زمان نبيٍّ نتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم؛ لذلك رغب أهل مكة في سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إنْ أردتُمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإنْ أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً؟ وما الروح؟

وفعلاً ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال صلى الله عليه وسلم : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » وجاء غد وبعد غد ومرَّت خمسة عشر يوماً دون أنْ يُوحَى لرسول الله شيء من أمر هذه الأسئلة ، فشقّ ذلك على رسول الله وكَبُر في نفسه أنْ يعطِي وَعْداً ولا يُنجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ولم يقُلْ : إنْ شاء الله؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . } [الكهف : 23-24]

وهذه الآية في حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق سبحانه أن يكون هذا الدرس في ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ، وحتى لا يستنكف أحد إذا استُدرك عليه شيء ، فها هو محمد رسول الله يستدرك عليه ربه ويُعدِّل له .

فكأن قوله تعالى : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . } [الكهف : 23-24] تربية للأمة في شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّي ، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأي على رأي حتى وإنْ كان من الخَلْق ، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه ، والتعديل والتربية من ناحيته؟

وإليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد ورد هذا الدرس في قوله تعالى : { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } [الأنبياء : 78]

فكان حكم داود عليه السلام في هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التي أكلتْ زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ،

ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . } [الأنبياء : 79] ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : { وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً . . } [الأنبياء : 79]

ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن ، فيكون أمراً طبيعياً ، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبيّ الله سليمان في هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور في حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به؛ لأن الحق أعزّ من أيّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم استدراك الخَلْق على الخَلْق أمر طبيعي ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف في المحاكم ، فلعل القاضي في محكمة الاستئناف يستدرك على زميله في المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شيء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يَرَهُ .

ولنا هنا وَقْفة مع أمانته صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحي شيئاً حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه ، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه ، فالرسول هو الذي بلغنا : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَآىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً } [الكهف : 23] وهو الذي بلَّغنا : { ياأيها النبي لِمَ تُحَرّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ } [التحريم : 1]

وهو الذي بلغنا في شأن غزوة بدر : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . } [التوبة : 43] وغيرها كثير من آيات القرآن؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : { وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ } [التكوير : 24]

حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحي حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين } [الحاقة : 44-46]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذي لا يُخفِي شيئاً .

ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكّروا في صِدْقه صلى الله عليه وسلم حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على صدقه فيما يقول؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقِّق ما وعد به ، وليس في قولنا : إنْ شاء الله حَجْر على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعي البعض أن قول إنْ شاء الله يلغي

التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطِّط كما تريد ، ودَبِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله ، وهي في حَدِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية في مشيئة الله ، فأنت غير كاذب ، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى؛ لذلك عليك أن تعلق الفعل على مشيئة الله ، فإنْ قُلْتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه في كذا ، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئاً؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باق لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه طارئ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا؟ قل : إن شاء الله ، واخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التي نحن بصددها فالحق سبحانه يقول : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً } [الكهف : 9]

{ أَمْ } حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عَمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما في قوله تعالى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور . . } [الرعد : 16]

فالمراد : إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها ، فدعْكَ من كلامهم ، ودَعْك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و { الكهف } : الفجوة في الجبل و { والرقيم } الشيء المرقوم أي : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقِم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : { كِتَابٌ مَّرْقُومٌ } [المطففين : 9] أي : مكتوب .

وقوله : { كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً } [الكهف : 9] أي : ليست هذه هي العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم تأخذ الآيات في تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى : { إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً . . } .

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10)

{ أَوَى } من المأوى ، وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه { الفتية } جمع فتى ، وهو الشاب في مُقْتبل العمر ، والشباب هم مَعْقِد الآمال في حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ، وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أيّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

{ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً . . } [الكهف : 10] أي : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة ، فالرحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمن هنا لا تكون إلا من الله : { وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } [الكهف : 10] أي : يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسّع عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . } [الأنعام : 43]

ثم يقول الحق سبحانه : { فَضَرَبْنَا على ءَاذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } .

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11)

يُقَال : ضُرِب الفسطاط على الأرض يعني الخيمة ، أي : غُطِّيتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلاّ كان الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أَيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ ... بنفْسِكَ تُعنف لاَ بالقَدَر

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر؟

فمعنى : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ . . } [الكهف : 11] أي : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجي ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التي دعوا الله بها وطلبوها؛ لأن الإنسان الذي يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففي النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام في أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الألم؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم في الكهف .

فالحق سبحانه إذن هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذي لا يُعكّر صَفْوه شيء ، والنوم هو الراحة التامة التي تطغى على الآلام العضوية في الذات الإنسانية .

وقد أختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم؛ لأن حاسة السمع هي أول الحواس عملاً في الإنسان ، وهي أول آلة إدراك تُؤدّي مهمتها في الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78]

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرختَ في أُذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف ، وهو فَجْوة في جبل في صحراء وهي عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : { فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] ومعنى عدداً أي : سنين كثيرة؛ لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشيء الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عَدّاً ونقداً .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً } .

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)

{ بَعَثْنَاهُمْ } أي : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت : { لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ . . } [الكهف : 12] أي : الفريقين منهم؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبْثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم .

أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا في تحديد مدة نومهم : { أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً } [الكهف : 12] أي : لنرى أيّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائباً . والأمد : هو المدة وعدد السنين .

والمتأمل في الآيات السابقة يجد فيها ملخصاً للقصة وموجزاً لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فأهل الكهف فتية مؤمنون فروا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصي مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطِنَا تفصيلاً

لكل لقطات القصة؛ لذلك تبدأ الآيات في التفصيل فيقول تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بالحق . . } .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13)

{ نَحْنُ } أي : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذي يقصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاصَّ غير الله لتُوقّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شيء من الأحداث لِهَوىً في نفسه ، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال في آية أخرى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . } [يوسف : 3]

إذن : هناك قصَص ليس بالحسن ، وهو القَصَص غير الدقيق .

فالقصَصُ القرآني يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث ، ويُصوّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع؛ لأنها من قصَّ الأثر أي : تتبَّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصّاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و { نبَأَهُم } النبأ : هو الخبر العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . . } [الكهف : 13]

هذا هو تفصيل القصة بعد أنْ لخَّصها القرآن في المذكرة والبرقية السابقة ، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناسٌ هذه القصة من قبل ، لكنها قُصَّتْ بغير الحق ، وغُيِّر فيها ، لكن قَصّنا لها هو القَصَص الحق الذي لا كذبَ فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التي ضَحَّوْا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولاّهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال في آية أخرى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وءاتاهم تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17]

وما أشبه هذه المسألة بالمعلِّم الذي يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيُوليه اهتمامه ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضَحَّوْا بكلِّ شيء وفرُّوا بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب ، وهو مظنّة الانشغال بالدنيا والحِرْص على مُتعها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتاء في أهل الكهف : فتاء إيمان و فتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول : { وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا . . . } .

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14)

والربط يعني أن تربط على الشيء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه ، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل الماء ، وتربط الدابة حتى لا تنفلت ، وقد وردتْ مادة (ربط) في القرآن كثيراً ، منها قوله تعالى في قصة أم موسى : { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا . . } [القصص : 10]

أي : ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله الذي أوحى إليها أن تُلْقِيَ بولدها في الماء ، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار : { كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا . . } [القصص : 10]

أي : تكشف عن الخُطّة التي أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً أي : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً . ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها ، وربط الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطاً للشعور يحكم تصرفاتها فتأتي سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة .

ومن هنا نأمر الغاضب الذي تغلي الدماء في عروقه بالهدوء وضبط النفس؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلجم جماح غضبه الذي لا تُحمد عُقباه ، ألا ترى التوجيه النبوي في حال الغضب؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذي أنت عليه؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ . . } [إبراهيم : 43]

أي : فارغة خالية ليس فيها شيء؛ لأن الشيء إذا فرغته من محتواه امتلأ بالهواء . وهنا يقول الحق سبحانه في أهل الكهف : { وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ . . } [الكهف : 14] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرِجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذي أَخبرتْ به الآية السابقة .

وقوله تعالى : { إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض . . } [الكهف : 14]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في وجهه ، وأن الباطل أفزعهم فهُبوا للتصدِّي له بقولهم : { رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض . . } [الكهف : 14] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرّضوا في دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطي صورة لفريقين : فريق الكفر الذي ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذي يُعلنها مُدوّية : { رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض . . } [الكهف : 14]

وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : { لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها } [الكهف : 14] فإن ادّعَيْنَا إلهاً من دون الله { لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } [الكهف :

14] أي : فقد تجاوزنا الحدّ ، وبَعُدْنا عن الصواب .
ثم يقول الحق سبحانه : { هؤلاء قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً . . . } .

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .
{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً } [الكهف : 15] فأفظع الظلم وأقبحه أنْ نفتريَ على الله الكذب ، كما قال تعالى : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13]
ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله . . . } .

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16)

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر ، ونأينا عن طريقهم ، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذي يسَّره الله لنا ، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمي فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا .
ويلفتنا هنا إلى فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتّسع للحياة ، بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء ، وليس به مُقوّم من مُقوّمات الحياة؛ لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه .
لذلك قال بعدها : { يَنْشُرْ لَكُمْ } [الكهف : 16] فالضيق يقابلُه البَسْط والسّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف يُوسّع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم ، أَلاَ ترى النائم يربع في الدنيا هنا وهناك ولا تحدُّه حدود؟
ومن هذه السعة ما حدث في قصة نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حينما تبعه فرعون بجنود حتى قال أتباعه : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . . } [الشعراء : 61] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر .
فماذا قال موسى لقومه في هذا الموقف؟ قال بملء فيه قوْلَة الواثق من نصر الله : { كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62]
فجاءه التأييد من ربه في التوِ واللحظة ، وفُرّج عنه وعن أصحابه ما يُلاَقون من ضيق المخرج ،

فأوحى الله إليه : { اضرب بِّعَصَاكَ البحر } [الشعراء : 63]
كذلك هنا : { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ . . } [الكهف : 16]
ثم يقول تعالى : { وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً } [الكهف : 16] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهي مُقوّمات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إنْ ظلوا في حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال . . . } .

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17)

بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التي تُزعجهم وتُقلِق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطر الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظُّلمة مهمةً ، فبها تَهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خَلْق من خَلْق الله ، لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف ، كما قال تعالى : { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33]
ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها { تَّزَاوَرُ } أي : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزُّور : أي الميل عن الحق ، وازورّ عن الشيء أي : مال عنه ، فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين .
{ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال } [الكهف : 17] والقرْض كما هو معلوم أنْ تعطي غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكأنها تقرضهم إياه . ولا شَكَّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التي تصنع الشيء وضده .
ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الفعل للشمس في تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .
وقوله : { وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ } [الكهف : 17] أي : في الكهف { ذلك مِنْ آيَاتِ الله } [الكهف : 17] وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أنْ تعترضَ : كيف تميل الشمس؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخَلْق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذي يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون ، تبطله إنْ شاء ، وتحركه إنْ شاء .
ثم يقول تعالى : { مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً } [الكهف : 17

] فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمُضِل ، فلماذا يعذبني إن ضللت؟

وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهي للجميع ، للمؤمن والكافر؛ لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطي له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدي ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدي ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ . . . } .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)

أي : لو أتيح لك النظر إليهم لخُيّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلّبهم في نومهم مرة ناحية اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظلّ أجسامهم على حالها ، ولا تأكلها الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش ، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد عافانا الله وإياكم وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : { وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد } [الكهف : 18] ويبدو أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مَادّاً ذراعيْه بفناء الكهف أو على بابه { لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } [الكهف : 18] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم في نفوس الناس ، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف ووَلّى هارباً يملؤه الرعب؛ لأن هيئتهم تُوحي بذلك ، حيث يتقلّبُون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة

.

ثم يقول الحق سبحانه : { وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . }

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19)

قوله : { بَعَثْنَاهُمْ } أي : أيقظناهم من نومهم؛ لأن نومهم الطويل الذي استغرق ثلاثمائة سنة وتِسْعاً أشبه الموت ، فقال { بَعَثْنَاهُمْ } ، والبعْثُ هنا لقضية خاصة بهم ، وهي أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم في الكهف ، وقد انقسموا في سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الأول : { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ . . } [الكهف : 19]

فَردَّ الفريق الآخر بما تقضيه طبيعة الإنسان في النوم العادي فقال : { قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . } [الكهف : 19] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد في النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب .

وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدري مُدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة : { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ . . } [البقرة : 259]

لقد حكم على مُدّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدها لم يتغير منه شيء ، فكيف يتأتّى الصدق من الحق سبحانه في قوله (مائة عام) والصدق في قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق القولين : ففي طعام العُزَير الذي ظلَّ على حاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفي حماره الذي رآه عظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الذي يجمع الشيء وضده في آن واحد .

ثم يقول تعالى حكاية عنهم : { قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ . . } [الكهف : 19] وهو قَوْل

الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف في هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التي لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا ننتهي فيه إلى شيء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع؛ لذلك قالوا : { فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أزكى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } [الكهف : 19]

والوَرِق يعني العملة من الفضة ، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشتري لهم من المدينة طعاماً؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم؛ لذلك طلبوا الطعام ، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أَطيبه وأَطْهره ، وأبعده عن الحرام .

وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم ، فَمَنْ سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خِلْسة ، وأن يتلطف في الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم ، ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التي ناموا عليها ، وما زالوا على حَذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسعَوْن للقضاء عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ . . . } .

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التي فَرُّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم في الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا . . } .

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)

في قوله تعالى : { وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا . . } [الكهف : 21] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زِلْتم على قَيْد الحياة وفي سَعَة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : { إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . . } [الكهف : 21] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم ، ويبدو أنهم كانوا على

مِسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : { ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً . . } [الكهف : 21] أي : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً : { قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً } [الكهف : 21] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلاف التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى : { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ . . . } .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22)

لقد اختلف القوم في عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلَّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه { رَجْماً بالغيب } ؛ لأنه قَوْل بلا عِلْم ، مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يعلق القرآن على هذا الرأي مما يدُّل على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتي القول الفَصْل في هذه المسألة : { قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ . . } [الكهف : 22] فلم يُبيّن لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقي ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث في أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من ورائه ، فالمهم أنْ يثبت أَصْل القصة وهو : الفتية الأشدّاء في دينهم والذين فَرُّوا به وضَحَّوْا في سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوة .

أما فرعيات القصة فهي أمور ثانوية لا تُقدّم ولا تُؤخّر؛ لذلك قال تعالى بعدها : { فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً . . } [الكهف : 22] أي : لا تجادل في أمرهم .

ثم يأتي فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا في اسمه . وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع في القصة ولا تضرُّ ، ويجب هنا أن نعلم

أن القَصَص القرآني حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص في قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأي .

ولو حدد زمانهم لَقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتّى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتتحقّق الفائدة المرجوّة من القصة ، أبهمهم زماناً ، أبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع في الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : { وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ . . } [غافر : 28] هكذا { رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ } دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالمهم أن الرجولة في الإيمان ، أيّاً كان هذا المؤمن في أيّ زمان ، وفي أيّ مكان ، وبأيّ اسم ، وبأيّ صفة .

كذلك في قوله تعالى : { ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ . . } [التحريم : 10] ولم يذكر عنهما شيئاً ، ولم يُشخِّصهما؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيانُ أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبي المرسَل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حريةً عَقَيدة مُطْلقة .

وكذلك في قوله : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ . . } [التحريم : 11] ولم يذكر لنا مَنْ هي ، ولم يُشخِّصها؛ لأن تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذي ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصيّ قلبي ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وها هي امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : { رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين } [التحريم : 11]

أما في قصة مريم ، فيقول تعالى : { وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ . . } [التحريم : 12] فشخَّصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا؟ قالوا : لأن الحدث الذي ستتعرَّض له حَدَثٌ فريد وشيء خاصٌّ بها لن يتكرر في غيرها؛ لذلك عيَّنها الله وعرَّفها ، أما الأمر العام الذي يتكرر ، فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبْهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما في قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدْوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَآىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً } .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23)

وتتجلى في هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد صلى الله عليه وسلم فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طَلب من مسألة أهل الكهف ، ثم في النهاية ذكَّره بهذه المخالفة في أسلوب وَعْظ رقيق : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَآىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . } [الكهف : 23-24]

وقد سبق أنْ ذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم حينما سأله القوم عن هذه القصة قال : سأجيبكم غداً ولم يَقُلْ : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفتَ نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم .

كما خاطبه بقوله : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . } [التوبة : 43]

فقدَّم العفو أولاً وقرَّره؛ لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عَوْناً أو مساعدة ، وقد سبق أنْ أساء إليك ، فمن اللياقة أَلاَّ تَصدِمه بأمر الإساءة ، وتُذكّره به أولاً ، بل اقْضِ له حاجته ، ثم ذكّره بما فعل .

والحق سبحانه يقول : { إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ . . } .

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24)

أي : على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء في الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان في بداية الأمر .

وقوله تعالى : { وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً } [الكهف : 24] أي : يهديني ويعينني ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذِكْره لازمة من لوازمي في كل عمل من أعمالي فلا أبدأ عملاً إلا بقوْل : إنْ شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ . . . } .

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25)

وهذه الآية تعطينا لقطةً من المذكرة التفصيلية التي أعطاها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف ، وهي تُحدِّد عدد السنين التي قضاها الفِتْية في كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعليّ بحساب الشمس .

لذلك؛ فالحق سبحانه لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : { وازدادوا تِسْعاً } [الكهف : 25]

ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السماوات والأرض قسَّم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلّنا على بداية الشهر جعل الخالق سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذي يظهر هلالاً في أول كل شهر ، وقد قال تعالى : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض . . } [التوبة : 36]

فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمري لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعاً ، إذن : هي في حسابكم الشمسي ثلاثمائة سنة ، وفي حسابنا القمري ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً في كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيتات في الإسلام بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسي في طقس واحد لا يتغير ، فإنْ جاء الحج في الشتاء يظل هكذا في كل عام ، وكم في هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج في فصل الشتاء .

والأمر كذلك في الصيام .

أما في التوقيت القمري فإن هذه العبادات تدور بمدار العام ، فتأتي هذه العبادات مرة في الصيف ، ومرة في الخريف ، ومرة في الشتاء ، ومرة في الربيع ، فيؤدي كل إنسان هذه العبادة في الوقت الذي يناسبه؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمتأمل في ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب ، فلو تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة في ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع في ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى ، وفي الوقت الذي تنادي فيه « الله أكبر » يُنادي آخر « أشهد ألا إله إلا الله » وينادي آخر « أشهد أن محمداً رسول الله » وهكذا دواليك في منظومة لا تتوقف .

وكذلك في الصلاة ، ففي الوقت الذي تصلي أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله في لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة في كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض . . } .

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)

الأسلوب في قوله تعالى : { أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ . . } [الكهف : 26] وأسلوب تعجُّب أي : ما أشدّ بصره ، وما أشدّ سمعه؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شيء بلا قانون .

وقوله : { مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً } [الكهف : 26] كأن الحق سبحانه وتعالى يُطمئِن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغيّر كلامه .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { واتل مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ . . } .

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27)

أي بعد هذه الأسئلة التي سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم ، فإنْ أرادوا أن يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله منه ، وإياك أنْ تظنَّ أن العقبات التي يقيمها خصومك ستُؤثّر في أمر دعوتك .

وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى في ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التي تمرُّ بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة .

وقوله : { لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ . . } [الكهف : 27] لأن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذي لا يُبدّل ولا يُغيّر : { وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً } [الكهف : 27] أي : ملجأ تذهب إليه؛ لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل ، كما قال تعالى : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت : 51]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي . . . } .

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)

نزلتْ هذه الآية في « أهل الصُّفَّة » وهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا لا يعملون؟ ولماذا لا يشتغلون كباقي الناس؟ بل وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : { واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم . . } [الكهف : 28]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم ، ولا نُقلِّل من شأنهم أو نتهمهم؛ لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك

أن صاحب الدنيا الذي انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدّداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إنْ أصابه مكروه أو نزلتْ به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقبّل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجاذيب ليرد بهم جماح أهل الدنيا المنهمكين في دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا في خِدْمة هؤلاء العباد ، ففي يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخرج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات ، فأتى العامل بالمبلغ في صورة جنيهات من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدَّ من جنيهات من الحجم الكبير؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا بالجنيه الكبير ، فقلت في نفسي : سبحان الله مجذوب على باب المسجد وشغل أكبر رجل اقتصاد في مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : { وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ . . } [الكهف : 28] أي : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا؛ لأن مَدد النظرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد للمؤمن { تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا . . } [الكهف : 28] لأنك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقوّي هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دَيْدنهم وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرُّب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قِلّة ، في كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أُسْوة تُذكّر الناس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدَّعي حال هؤلاء ، ويُوهِم الناس أنه مجذوب ، وأنه وَلِيٌّ نَصْباً واحتيالاً ، والشيء لا يُدَّعَى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذي يدَّعي الطب أو يدَّعي العلم لما رأى من مَيْزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءتْ إليهم تدقُّ أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتها ، فضلاً عَمَّا لهم من مكانة ومنزلة في النفس ومحبة في القلوب .

فلماذا إذنْ لا يدعون هذه الحال؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود؟ وما

أفسد على هؤلاء العباد حالَهم ، وما خاض الناس في سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التي استمرأتْ حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : { وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا . . } [الكهف : 28] لأنه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَن اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم؟

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم الموقف من الدنيا في قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خدمني فاخدميه ، ومَنْ خدمك فاستخدميه . . » فالدنيا بأهلها في خدمة المؤمن الذي يعمر الإيمانُ قلبه ، وليس في باله إلا الله في كل ما يأتي أو يَدَع .

وقوله تعالى : { واتبع هَوَاهُ . . } [الكهف : 28] أي : أن هذا الذي يُحَرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه؛ لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تِبَعاً لما جئتُ به » .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . } [المؤمنون : 71]

وقوله تعالى : { وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } [الكهف : 28] أي : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن . . . } .

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)

قوله تعالى : { وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ . . } [الكهف : 29] أي : قُلِ الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذي خلق ، كما في قوله تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ } [الزخرف : 87]

وقوله : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله } [لقمان : 25]

فمعنى : { مِن رَّبِّكُمْ . . } [الكهف : 29] أي : بإقراركم أنتم ، فالذي خلقكم وربّاكم وتعهدكم هو الذي نزَّل لكم هذا الحق و { رَّبِّكُمْ . . } [الكهف : 29] أي : ليس ربي وحدي ، بل ربكم وربّ الناس جميعاً .

والحق : هو الشيء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيّره أحد؛ لأن الذي يتغير كلامه هو الذي يقضي شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن عمله شيء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .
فالربوبية عطاء ، فربك الذي خلقك وأمدَّك بالنعم ، وهو الذي يُربّيك كما يُربِّي الوالد ولده؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التي فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التي تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيّد اختياراته؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى؛ لأنها ليس لها مطلوبات .

فالذي يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك؟ وعَمَّا نهاك؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْمَ هذا الدين؛ لأنه يتركني بحريتي أفعل ما أريد .
لذلك؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتّ سجاح النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ، فكيف سيجمعون الناس من حولهم؟
وما أشبه مُدَّعي الأمس بمدعي اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَضٍ من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإنْ كان فطرياً في النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفِّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويصدقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل في ظله ما يريد .
إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول في المثل : (اللي يأكل لقمتي يسمع كلمتي) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبرَ في الإيمان { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ .

. } [الكهف : 29] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .
وقد جاء في الحديث القدسي : « إنكم لن تملكوا نفعي فتنفعوني ، ولن تملكوا ضُرّي فتضروني ، ولو أن أوّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .
« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص

ذلك مما عندي إلا كمِغْرز إبرة إذا غمسها أحدكم في بحر ، وذلك أَنِّي جواد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أنْ أقولَ له كُنْ فيكون » .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : { مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا . . } [فصلت : 46] لكني أحب لخَلْقي أن يكونوا دائماً على خير مني ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : { واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . . } [الكهف : 28]

وكان خصوم الإسلام حينما يَرَوْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخِلْه أحد قبلك ، شتمتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحلامنا وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنت تريد جاهاً سوَّدناكَ علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقال صلى الله عليه وسلم : « والله ما بي ما تقولون ، ولكن ربي أرسلني بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصري عليكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم لعل الأمر حين يكون سِراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ تحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عَمِّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظِهره الله ، أو أَهْلِك دونه » .

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهي إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرِف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزل الله : { واصبر نَفْسَكَ . . } [الكهف : 28]

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذي أَنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزِل عليهم؛ لأن رسول الله إنما أُرسِلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجّه إليهم؟ لذلك قال : { وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ .

. } [الكهف : 29] لأنه بعثني بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون توجيهي حسْب أهوائكم فقد انقلبتْ المسألة ، ودعوتكم لي أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعُون ربهم بالغداة والعشيّ وأتوجه إليكم ، فهذا دليل على عدم صِدْق إيمانكم ، وأنكم لستم

جادِّين في اتباعي؛ لذلك فلا حاجة بي إليكم .

ثم يقول تعالى : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . } [الكهف : 29] أي : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حَقٍّ ينزل من الله ، لا أن آخذ الحق منكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذي أرسلني الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

والأمر في هذه الآية سبق أنْ أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً بغير مطلوب فلنفهم أن الأمر استُعمِل في غير موضعه ، كما يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا في : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . } [الكهف : 29] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقها لَكانَ مَنْ آمن مطيعاً للأمر : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن . . } [الكهف : 29] والعاصي أيضاً مطيع للأمر : { وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . } [الكهف : 29] فكلاهما إذن مطيع ، فكيف تُعذِّب واحداً دون الآخر؟

فالأمر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أي : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار في هذه المسألة؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فالله سبحانه غنيّ عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خَلْق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء الله عنكم مَسْحوب على استغناء الرسول ، وسوف ينتصر محمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة في مكة ويجهر بها في أُذن صناديد الكفر وعُتَاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم؛ لأن لهم مكانةً وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأْتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم أَلِفُوا النصر وألفوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم ليسُودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . } [الكهف : 29] والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهوّل الآية وتُفخِّم أمر العذاب؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه الإنذار به لا ليقع الناس في موجبات العقاب ، بل لينتهوا عن الجريمة ، ويتأوْا عن أسبابها ، إذن : فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى { أَعْتَدْنَا } أي : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسْبقاً ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهّزة ، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل ، وقد أُعِدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا ، وأعدّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا ، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض ،

فالذي آمن وَفّر مكانه في النار ، والذي كفر وفَّر مكانه في الجنة .

لذلك قال تعالى في هذه المسألة : { وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الزخرف : 72]

إذن : فخَلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : { لِلظَّالِمِينَ . . } [الكهف : 29] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ، لأنك تأخذ حَقَّ الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه ، فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخِله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : { أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . } [الكهف : 29] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . و معنى سرادق : أي محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤيسَهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً } [الكهف : 29]

الاستغاثة : صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . } [إبراهيم : 22] أي : حين يصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب { يُغَاثُواْ } يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو يُخفّف عنهم العذاب . . لا { يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل . . } [الكهف : 29] أي : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل . والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلي الذي يسمونه الدُّرْدِيّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْي الماء ، وهكذا يزدادون حرارة فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : { يُغَاثُواْ } أسلوب تهكميّ؛ لأن القاعدة في الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذي يطلبه ، فهذا ينافي البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

إذن : فقوله تعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل . . } [الكهف : 29] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذي أخفق في الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى : { يَشْوِي الوجوه . . } [الكهف : 29] أن الماء من شدة حرارته يشوي وجوههم ، قبل أن يدخل أجوافهم : { بِئْسَ الشراب . . } [الكهف : 29] أي : الذي يغاثون به { وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً } [الكهف : 29] المرتفق هو الشيء الذي يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً ، لكن بالله هل هناك راحة في جهنم؟

إذن : فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم ، كما قال تعالى مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها مِمَّنْ عَصَوْا الله : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49] والحق سبحانه وتعالى يتكلم في هذه المسألة بأساليب متعددة منها استخدام كلمة (النُّزُل) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً } [الكهف : 107]

وقوله تعالى : { إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ } [فصلت : 30-32] فالذي أَعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذي يُعِد نُزُلاً لضيفه يُعِدّه على قَدْر غِنَاه وبَسْطة كرمه ، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه؟

وذيّل الآية بقوله : { غَفُورٍ رَّحِيمٍ } [فصلت : 32] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت في هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزل هنا في الجنة ، فهي محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم في النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : { وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ } [الواقعة : 92-93]

فقد استخدم النزل في غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهي في قوله تعالى : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . } [الكهف : 29] أراد سبحانه أنْ يُبيّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر ، وهو أسلوب معروف في العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورِد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ

اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . } [القصص : 73]
أي : لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا من فضل الله في النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثاني للمحكوم عليه الثاني وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :
قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسان وخالقي ... هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها؟ يقول :
قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسَانُ وخالِقِي ... رَاضٍ وباكٍ شَاكِرٌ وغَفُورُ
فتكون على الترتيب : قلبي راضٍ ، وجفني باكٍ ، ولساني شاكر ، وخالقي غفور .
ومرة يأتي اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقةً بأن نباهةَ السامع سترُدُّ كل شيء إلى أصله كما في الآية التي نحن بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . } [الكهف : 29] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما في الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً . . } [الكهف : 29] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [الكهف : 30]
وليكُنْ في الاعتبار أن المتكلم رَبٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ « دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة » .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30)

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح؛ لأن الإيمان هو العقيدة التي ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثّق الأمر أو النهي إلى الله الذي آمنتَ به؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 1-3]
ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التي تحتاج إلى التواصي بالصبر والتواصي بالحق ، ولنا أسوة في هذه المسألة بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تحمّلوا عِبء الدعوة وصبروا على الأذى في سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : { إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [الكهف : 30]

نلاحظ أن { مَنْ } هنا عامة للمؤمن والكافر؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان؛ لأن العامل الذي يُحسِن العمل قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حَقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء في الدنيا .

فالكافر إن اجتهد واحسن في علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له في الدنيا وتنتهي المسألة حيث لا حَظَّ له في الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : 23]

ويقول تعالى : { مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً } [الإسراء : 18]

ويقول تعالى : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب } [النور : 39]

فهؤلاء قد استوفوا أجورهم ، وأخذوا حظّهم في الدنيا ألواناً من النعيم والمدح والثناء ، وخُلِّدتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات؛ لذلك يأتي في الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجئ بوجود إله لم يكُنْ يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره مِمَّن عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية وللمجتمع وللشهرة وقد نالوا هذا كله في الدنيا ، ولم يَبْقَ لهم شيء في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . . } .

أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)

{ أولئك } أي : الذين آمنوا وعملوا الصالحات { لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . } [الكهف : 31]

الجنات رأينا منها صورة في الدنيا ، وتُطلق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعي : فهو الذي نعرفه من أنها الدار التي أعدَّها الله تعالى لثواب المؤمنين في الآخرة . أما المعنى اللغوي : فهي المكان الذي فيه زرع وثمار وأشجار تُوارِي مَنْ سار فيها وتستره؛ ومادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجُنّة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم . . الخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن شيء غيبيّ يُحدِّثنا بما يوجد في لغتنا من ألفاظ ، واللغة التي نتكلم بها ، يُوجَد المعنى أولاً ثم يوجد اللفظ الدالّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإنْ نُطِق اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التي يُحدِّثنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على

قلب بشر »

إذن : فمن أين نأتي بالألفاظ الدَّالة على هذه المعاني ونحن لم نعرفها؟ لذلك يُعبِّر عنها الحق سبحانه بالشبيه لها في لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذي يُميِّزها عن جنة الدنيا ، كما جاء في قوله تعالى : { مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ . . } [محمد : 15]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتي قوله : { غَيْرِ آسِنٍ } ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك في : { وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ } [محمد : 15]

فالخمر في الدنيا معروفة؛ لكنها ليست لذة لشاربها ، فشاربها يبتلعها بسرعة؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة؛ لذلك لما أعطاها اسم الخمر لنعرفها ميَّزها بأنها لذة ، وخَمْر الدنيا ليست كذلك؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التي سيخلقها الله لنا في الجنة ، فبها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن؛ لأن العين تعطيك المشهد الذي رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذي رأيته والذي رآه غيرك ، ثم يقول : « ولا خطر على قلب بشر » فوسَّع دائرة ما في الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك في قوله تعالى : { وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . } [محمد : 15]

ونحن نعرف العسل فميَّزه هنا بأنه مُصفّى ، ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلَقُ به الحصى والرمل؛ لذلك مُيِّز عسل الجنة بأنه مُصفّى .

وكذلك في قوله سبحانه : { سِدْرٍ مَّخْضُودٍ } [الواقعة : 28] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سِدْر الجنة؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه ، ولا يُدْمِي يديك كسِدْر الدنيا .

وهنا ميَّز الله الجنة في الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : { جَنَّاتُ عَدْنٍ . . } [الكهف : 31]

أي : إقامة دائمة لا تنتهي ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فهَبْ أن واحداً يتمتع في الدنيا بالدُّور والقصور في الحدائق والبساتين التي هي جنة الدنيا ، فهل تدوم له؟ إن جنات الدنيا مهما عَظُم نعيمها ، إما أنْ تفوتك ، وإما أنْ تفوتها .

والعَدْن اسم للجَنّة ، فهناك فَرْق بين المسكن والمسكن في الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن في الجنة له مسكن خاص في جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . } [محمد : 12]

وفي آية أخرى يقول : { تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . } [التوبة : 100] ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففي قوله : { تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . } [التوبة : 100] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعه أحد عنك أنْ يَسُدَّه دونك؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجري { مِن

تَحْتِهَا } أي : من الجنة نفسها لا يمنعه أحد عنك .

وفي هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية في إقامة المباني عليها ، خُذْ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الريَّاح التوفيقي من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوجدْتَ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة في الماء ، واستخدام هندسة البناء أنْ نقيم المساكن الكافية لسُكْنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هي للخُضْرة وللزرع ولِقُوتِ الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً في الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة في بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتْ الحركة العمرانية على الجيزة والدقي والمهندسين ، وكانت في يوم من الأيام أراضي تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا في تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل .

إذن : في الآية لفتة يمكن أنْ تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمي لنا الرقعة الزراعية الضيقة . ثم يقول تعالى : { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ . . } [الكهف : 31] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التي يتحلَّى بها الرجال؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن في طموحات الإنسان في زُخْرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمَّى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب في الآخرة زينة وزخرف ، وفي آية أخرى ، يقول تعالى : { وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ . . } [الإنسان : 21]

ومرة أخرى يقول : { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } [فاطر : 33]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم عن هذه الحلية في الآخرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن .

ونلحظ في قوله تعالى : { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ . . } [الكهف : 31] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء الفعل { يُحَلَّوْنَ } أي : حلاَّهم غيرهم ولم يقل يتحلون؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس ، وهو من الضروريات قال : { وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ } [الكهف : 31]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدم الفضل على العمل ، كما قال تعالى في آية أخرى : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . } [يونس : 58]

أي : إياك أن تقول هذا بعملي ، بل بفضل الله وبرحمته؛ لذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقر بهذه الحقيقة ، فيقول : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » ذلك لأنك لو نظرتَ إلى عملك لوجدتَه بعد تكليفك الذي كلفت به في سِنِّ البلوغ ، وقد عِشْت طوال هذه المدة ترتع في نِعَم الله ورزقه دون أنْ يُكلِّفك بشيء؛ لذلك مهما قَدَّمْتَ لله تعالى من طاعات ، فلن تفِيَ بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذتَ حقك سابقاً ومُقدَّماً في الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : { يَلْبَسُونَ . . } [الكهف : 31] أي : بما عملوا ، أما في الزينة والتحلية فقال : { يُحَلَّوْنَ } كالرجل الذي يُجَهِّز ابنته للزواج ، فيأتي لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزُخْرف الحياة من نجف أو سَجَّاد أو خلافه .

واللباس من ضروريات الحياة التي امتنّ الله بها على عباده ، كما جاء في قوله تعالى : { يابني ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً . . } [الأعراف : 26] والريش : هو الكماليات التي يتخذها الناس للفَخْفخة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة { إِسْتَبْرَقٍ } وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس ، وهي كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (آمين) التي نتخذها شعاراً في الصلاة وأصلها يمني أو حبشي . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربي؟ نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ في لغة العرب ساعةَ نزل ، أم جاء القرآن وهي سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارتْ على الألسنة ، وجرتْ مجرى الكلمة العربية .

ومن الكلمات التي دخلتْ العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخفّ في الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرَّها مَجْمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها في اللغة ولم تكُن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : { مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرآئك . . } [الكهف : 31] الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يُريحه ، والأرائك : هي السُّرر التي لها حِلْية مثل الناموسية مثلاً . { نِعْمَ الثواب . . } [الكهف : 31] كلام منطقيّ : { وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً } [الكهف : 31] أي : أن هذا هو مُقْتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : { وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً

} [الكهف : 29]
ثم يقول الحق سبحانه : { واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ . . } .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32)

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسميْن : قسم مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع ، ويُسوّي بينهم .
لذلك؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مَثَلاً موجوداً في الحياة ، ففي الناس الكافر الغني والمؤمن الفقير ، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما .
قوله تعالى : { واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ . . } [الكهف : 32] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشيء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بُدّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :
وَيَا ضَارِباً بِعَصَاهُ الحَجَر ... ضربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَر؟
وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من حالة إلى أخرى ، كذلك المثَل : الشيء الغامض الذي لا تفهمه ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضّحه ويُنبّهك إليه؛ لذلك قال : { واضرب لهُمْ مَّثَلاً . . } [الكهف : 32] وسبق أن أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُ في معنى من المعاني ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائراً ، كما نقول : جود حاتم ، وتقابل أي جَوّاد فتناديه : يا حاتم ، فلما اشتهر حاتم بالجود أُطلِقَتْ عليه هذه الصفة . وعمرو بن معد اشتُهِر بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتُهِر بالذكاء ، وأحنف بن قيس اشتهر بالحلم . لذلك قال أبو تمام في مدح الخليفة :
إِقْدامُ عَمْروٍ في سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... في حِلْمِ أحنَفَ في ذَكَاءِ إياس
فأراد خصوم أبي تمام أن يُحقّروا قوله ، وأن يُسقِطوه من عين الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فوق مَنْ وصفتَ ، وكيف تُشبّه الخليفة بهؤلاء وفي جيشه ألفٌ كعمرو ، وفي خُزَّانه ألف كحاتم فكيف تشبهه بأجلاف العرب؟ كما قال أحدهم :
وَشبَّهه المدّاحُ في البَاسِ والغِنَى ... بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أَصْغر خَادِمِ
فَفِي جيْشِه خَمْسُونَ أَلْفاً كعنْترٍ ... وَفي خُزَّانِه أَلْفُ حَاتِمِ
فألهمه الله الردَّ عليهم ، وعلى نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :
لاَ تُنكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَه ... مَثَلاً شَرُوداً في النَّدَى وَالبَاس

فاللهُ قَدْ ضَربَ الأقلّ لِنُورِه ... مَثَلاً مِنَ المشْكَاةِ والنِبْرَاسِ

إذن : فالمثل يأتي لِيُنَبّه الناس ، وليُوضّح القضية غير المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : { إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . } [البقرة : 26]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما في قوله تعالى : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 41]

وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : { وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً }

[النحل : 92]

ومنه قوله تعالى : { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ } [البقرة : 17]

ومنه قوله تعالى مُصوّراً حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال : { واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً } [الكهف : 45]

فالمثل يُوضِّح لك الخفيّ بشيء جَلِيٍّ ، يعرفه كل مَنْ سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر الذي أراد أنْ يصفَ لنا الأحدب فيُصوّره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادعه وَغَاص قَذَالُه ... فكأنه مُتربّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنما صُفِعْتَ قَفَاهُ مرةً ... وأَحسَّ ثانيةً لَهَا فتجمَّعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكافر إذا استغنى ، والفقير إذا رَضِى بالإيمان .

وقوله : { رَّجُلَيْنِ . . } [الكهف : 32] أي : هما مَحَلُّ المثل : { جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً } [الكهف : 32] لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فِعليّ في التاريخ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بني إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ، فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه ، وأن يشتري به أرضاً في الجنة وقصراً في الجنة وفضَّل الحور العين والولدان في جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به ، كما قال تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ

استغنى } [العلق : 6-7]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعِم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك ، ونتيجة سعْيك ومهارتك ، كما قال قارون : { قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي } [القصص : 78]

فتركه الله لِعلْمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . } [القصص : 81] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع : كافر يستكبر ويستغني ويستعلي بغناه ، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية في قوله تعالى : { جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً } [الكهف : 32]

فقد علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه القوت الضروري ، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب ، وهي للزينة قبل الثياب ، وهي من الضروريات .

وقوله : { جَنَّتَيْنِ . . } [الكهف : 32] نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن يحافظ على خصوصيات بيته؛ لأن للإنسان مسكناً خاصاً ، وله عموميات أحباب ، فيجعل لهم مسكناً آخر حتى لا يطَّلع أحد على حريمه؛ لذلك يسمونه السلاملك والحرملك .

وكذلك في قوله تبارك وتعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } [سبأ : 15] ثم يقول الحق سبحانه : { كِلْتَا الجنتين ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً . . } .

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33)

أي : أعطتْ الثمرة المطلوبة منها ، والأُكُل : هو ما يُؤكل ، ونعرف أن الزراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئاً اليوم ، وشيئاً غداً ، وشيئاً بعد غد وهكذا .

{ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً . . } [الكهف : 33] كلمة { تَظْلِم } تعطينا إشارة إلى عمل الخير في الدنيا ، فالأرض وهي جماد لا تظلم ، ولا تمنعك حقاً ، ولا تهدِر لك تعباً ، فإنْ أعطيتَها جهدك وعملك جادتْ عليك ، تبذر فيها كيلة تعطيك إردباً ، وتضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف .

إذن : فهي كريمة جوادة شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْثٍ وبَذْر ورعاية وسُقْيا ، وقد تريحك السماء ، فتسقى لك .

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أنْ يضرب لنا المثل في مضاعفة الأجر ، قال : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ } [البقرة : 261]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق الأرض؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم؛ لذلك قال بعدها : { والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أنْ تعطيك على قَدْر تعبك وكَدِّك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر لك هذا المجهود ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه من العمل قال : « هذه يَدٌ يحبها الله ورسوله » .

يحبها الله ورسوله؛ لأنها تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي العاجزين عن العمل ، وهَبْ أنك لن تتصدَّق بشيء للمحتاج ، لكنك ستبيع الفائض عنك ، وهذا في حد ذاته نوعٌ من التيسير على الناس والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأم التي تُجزِل لك العطاء إنْ برَرْتَ بها ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألاَ تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه؟ فكيف إذا أنت أكرَمتها بالبر؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أُمَّنا على وجه التشبيه ، بل هي أُمّنا على وجه الحقيقة؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تتحمله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إن مات وصار جيفة يأنف منه كل أخ محب وكل قريب ، في حين تحتضنه الأرض ، وتمتص كل ما فيه ، وتستره في يوم هو أحوج ما يكون إلى الستر . ثم يقول تعالى : { وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً . . } [الكهف : 33] ذلك لأن الماء هو أَصْل الزرع ، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ . . . } .

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34)

أي : لم يقتصر الأمر على أنْ كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذي يُؤتي أُكُله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أي : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاورة : { فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً } [الكهف : 34]

دليل على أن ما تقدم ذِكْره من أمر الجنتين وما فيهما من نِعَم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب القول { لِصَاحِبِهِ } ، والصاحب هو : مَنْ يصاحبك ولو لم تكن تحبه { يُحَاوِرُهُ } أي : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فماذا قال صاحبه؟ قال : { أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً . . } [الكهف : 34] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم { وَأَعَزُّ نَفَراً } [الكهف : 34] داخلة في قوله : { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ } [الكهف : 34] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ . . . } .

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35)

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ . . } [الكهف : 35] نقول : لأن الإنسان إنْ كان له جنتان فلنْ يدخلهما معاً في وقت واحد ، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنةً واحدة ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : { وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ . . } [الكهف : 35] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخي لها عنان الشهوات ، فيحرمها من مشتهيات أخرى ، ويُفوّت عليها ما هو أبقى وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه؛ لأن النفس لها جانبان : نفسٌ تشتهي ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة إذن جدل بين هذه العناصر؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، فإنْ قلت : كيف وأنا ونفسي شيء واحد؟ لو تأملتَ لوجدتَ أنك ساعة تُحدِّث نفسك بشيء ثم تلوم نفسك عليه؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحوازية شهوانية ، فإنْ مَالتْ النفس الشهوانية أو انحرفتْ قَوَّمتها النفس الفطرية وعَدلَت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهي في جميع الديانات كان إذا عَمَّتْ المعصية في الناس ، ولم يَعُدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولاً يرشدهم ويُذكِّرُهم ، إلا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سبحانه حَمَّلهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل .

وكأنه سبحانه يطمئننا إلى أن الفساد لن يَعُمْ ، فإنْ وُجِد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها

أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساسٌ يقوم عليه المجتمع الإسلامي .

ثم يقول تعالى : { قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً } [الكهف : 35]

فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول؟ لا ، لأنها جنتُه يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حَدَّث نفسه به حالَ دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغِنَى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النعمة ، أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تَهلك ، لقد غَرَّهُ واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا وفقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال : { وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً . . . } .

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36)

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإنْ قُبلَتْ منه : { مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً } [الكهف : 35] فلا يُقبَل منه { وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً . . } [الكهف : 36] لذلك لما أنكر قيام الساعة هَزَّته الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلا : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي . . } [الكهف : 36] أي : على كل حال إنْ رُددتُ إلى ربي في القيامة ، فسوف يكون لي أكثر من هذا وأعظم وكأنه ضمن أن الله تعالى أَعدَّ له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لنتأمل قَوْل هذا الجاحد المستعلي بنعمة الله عليه المفتون بها : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي . . } [الكهف : 36] حيث يعرف أن له رباً سيرجع إليه ، فإنْ كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لا تُناقِض نفسك ، فما حدَث منك من استعلاء وغرور وشَكٍّ في قيام الساعة يتنافى وقولك { رَبِّي } ولا يناسبه .

و { مُنْقَلَباً } أي : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ . . . } .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37)

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحَاوراً ومُجادلاً ليجُلِّيَ له وَجْه الصواب : { أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ . . } [الكهف : 37] أي : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذي هو أصل خَلْقك { ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ . . } [الكهف : 37] وهي أصل التناسل { ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً } [الكهف « 37] أي : كاملاً مُسْتوياً (ملو هدومك) .

و { سَوَّاكَ . . } [الكهف : 37] التسوية : هي إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته في الحياة

، وقلنا : إن العود الحديد السَّويّ مستقيم ، والخطاف في نهايته أعوج ، والاعوجاج في الخطاف هو عَيْن استقامته واستواء مهمته؛ لأن مهمته أن نخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة في { أَكَفَرْتَ . . } [الكهف : 37] ليست للاستفهام ، بل هي استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقه .

والتراب هو أَصْل الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقه؛ لأن الله تعالى ذكر في خلق الإنسان مرة { مِّن مَّآءٍ } [السجدة : 8] ومرة { مِن تُرَابٍ } [آل عمران : 59] ، [الروم : 20] ومرة { مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } [الحجر : 26] ومرة { مِن صَلْصَالٍ كالفخار } [الرحمن : 14] .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة في خَلْق الإنسان ، والحقيقة أنها شيء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإنْ أضفْتَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطْتَ الطين بعضه ببعض صار حمأ مسنوناً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صَلْصَالاً ، إذن : فهي مرحليات لشيء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال : { لكنا هُوَ الله رَبِّي . . . } .

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38)

قوله : { لكنا . . } [الكهف : 38] أي : لكن أنا ، فحذفت الهمزة وأُدغمت النون في النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه ، فإنْ كنت قد كفرتَ بالذي خلقك من تراب ، ثم من نطفة . ثم سوَّاك رجلاً ، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقني ، فقَوْلي واعتقادي الذي أومن به : { هُوَ الله رَبِّي . . } [الكهف : 38]

وتلاحظ أن الكافر لم يَقُلْ : الله ربي ، إنما جاءتْ ربي على لسانه في معرض الحديث ، والفرْق كبير بين القولين؛ لأن الربّ هو الخالق المتولّي للتربية ، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشكّ في الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف؛ لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وأنكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول : { وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً } [الكهف : 38]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أنْ يُعدّي إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أنْ يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعلِّم صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدي الكافر؛ لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحِّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وها هو يدعو صاحبه ، فيقول : { ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله . . . } .

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39)

يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة ، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم؛ لأن النعمة التي يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها؟ إنها الأرض التي خلقها الله لك ، وعندما حرثْتها حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه ، والقوة التي أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك في أيّ وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شيء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهيةً إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خُذْ هذا المقعد الذي تجلس عليه مستريحاً وهو في غاية الأناقة وإبداع الصَّنْعة ، من أين أتى الصُّنّاع بمادته؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته قطعةَ خشب من إحدى الغابات ، ولو سألتَ الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتْك من الله .

لذلك يُعلّمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا ، بقوله : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 63-64]

هذه الحبة التي بذرتها في حقلك ، هل جلستَ بجوارها تنميها وتشدّها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخّر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخرها الله لك ، وذلّلها لخدمتك ، كما قال تعالى : { وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 72]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حلَّلْتَ أيَّ نعمة من النعم التي لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحة فتهلكه؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ } [الواقعة : 65-67]

كما يقول تعالى : { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم } [القلم : 17-20]

وكذلك في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون }

[الواقعة : 68-69]

هذا الماء الذي تشربونه عَذْباً زلالاً ، هل تعرفون كيف نزل؟ هل رأيتم بخار الماء الصاعد إلى الجو؟ وكيف ينعقد سحاباً تسوقه الريح؟ هل دريْتُم بهذه العملية؟ { لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . } [الواقعة : 70]

أي : مِلْحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتنُّ الله على عبيده بأيّ نعمة يُذكِّرهم بما ينقضها ، فهي ليست من سَعْيهم ، وعليهم أنْ يشكروه تعالى عليها لتبقى أمامهم ولا تزول ، وإلاَّ فَلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم!

وكذلك في مسألة خَلْق الإنسان يوضح سبحانه وتعالى أنه يمنع الحياة وينقضها بالموت ، قال تعالى :

{ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } [الواقعة : 58-60] فإنْ كنتم أنتم الخالقين ، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت . فذكر سبحانه النعمة في الخَلْق ، وما ينقض النعمة في أَصْل الخَلْق .

أما في خَلْق النار ، فالأمر مختلف ، حيث يقول تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون } [الواقعة : 71-72]

فذكر سبحانه قدرته في خَلْق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقُلْ : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خَلْق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخَلْق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخَلْق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا في النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدها مشتعلة مضطرمة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيّل الآية بقوله تعالى : { نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ } [الواقعة : 73]

كما نقف في هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودِقَّة الأداء القرآني؛ لأن المتكلم ربٌّ يتحدث عن كل شيء بما يناسبه ، ففي الحديث عن الزرع ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرْث والبذْر والسَّقْي وغيره نراه يؤكد الفعل الذي ينقض هذا الزرع ، فيقول : { لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . } [الواقعة : 65] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما في الحديث عن الماء وليس للإنسان دخل في تكوينه فلا حاجةَ إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : { لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . } [الواقعة : 70] دون توكيد؛ لأن الإنسان لا يدعي أن له فضلاً في هذا الماء الذي ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذي ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلِّمه كيف يستقبل نعمة الله عليه : { ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله . . } [الكهف : 39] { لولا } بمعنى : هلاَّ

وهي للحثِّ والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه في المرآة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت » .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أي : أن هذا كله ليس بقوتي وحيلتي ، بل فضل من الله فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها ، وضمنْتَ بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليه صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضي الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن فكان يقول في الخوف : « عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : { حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران : 173] فإني سمعت الله بعقبها يقول : { فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء } [آل عمران : 174] وعجبتُ لمن اغتمَّ لأن الغَمَّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شيء لا يعرف سببه وعجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزع إلى قول الله تعالى : { لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] فإني سمعت الله بعقبها يقول : { فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم } [الأنبياء : 88] ليس هذا وفقط ، بل : { وكذلك نُنجِي المؤمنين } [الأنبياء : 88] وكأنها (وصْفة) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبيّ الله يونس عليه السلام .

فقوْل المؤمن الذي أصابه الغم : { لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ . . } [الأنبياء : 87] أي : لا مفزع لي سواك ، ولا ملجأ لي غيرك { إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين . . } [الأنبياء : 87] اعتراف بالذنب والتقصير ، فلعل ما وقعتُ فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسي هو سبب هذا الغم الذي أعانيه .

وعجبتُ لمن مُكر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : { وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله . . } [غافر : 44] فإني سمعت الله بعقبها يقول : { فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ . . } [غافر : 45] فالله تبارك وتعالى هو الذي سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها صاحب الطموحات في الدنيا المتطلع إلى زخرفها كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : { مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله . . } [الكهف : 39] فإني سمعت الله بعقبها

يقول : { فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ } [الكهف : 40]
فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .
والعجيب أن المؤمن الفقير الذي لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذي يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلّب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير في الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : { مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله . . } [الكهف : 39]
ويستطرد المؤمن ، فيُبيّن لصاحبه ما عَيَّره به من أنه فقير وهو غني ، وما استعلى عليه بماله وولده : { إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً } [الكهف : 39]
ثم ذكّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدِّل هذا الحال ، فقال : { فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ . . . } .

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40)

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْت الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء في قوله تعالى : { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم : 7]
فقوله : { فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ } [الكهف : 40] أي : ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوّلها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرةَ لك على جَلْبها من البداية . إذن : يمكن أنْ يعطيني ربي نعمة مثل نعمتك ، في حين تظل نعمتك كما هي ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها : { وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السمآء } [الكهف : 40] هذه النعمة التي تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْباناً .
والحُسْبان : الشيء المحسوب المقدَّر بدقّة وبحساب ، كما جاء في قوله تعالى : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : { لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب } [يونس : 5] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطةً على نظام دقيق لا يختلّ ، مثل الساعة لا تستطيع أنْ تعرفَ بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حسباناً لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشأ على حُسْبان .
وحَسب حُسْباناً مثل غفر غفراناً ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التي اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة

أصابتني كما أصابت غيري . . لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .
ثم يقول تعالى : { فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً } [الكهف : 40] أي : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ صَعيداً أي : جدباء يعلُوها التراب ، ومنه قوله تعالى في التيمُّم : { فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً } [النساء : 43] ليس هذا وفقط ، بل { صَعِيداً زَلَقاً } [الكهف : 40] أي : تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشي عليه .

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)

{ غَوْراً } أي : غائراً في الأرض ، فإنْ قُلْت : يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله في أيّ حيلة يفكر فيها : { فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً } [الكهف : 41] أي : لن تصل إليه بأيّ وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى في آية أخرى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ } [الملك : 30]
لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : { فعسى رَبِّي . . } [الكهف : 40] رجاء لم يحدث بَعْد ، ولم يصل إلى إيقاعيات القدر .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا . . . } .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42)

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكأن الله تعالى استجاب للرجل المؤمن ولم يكذب توقعه { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } [الكهف : 42] أحيط : كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال في آية أخرى : { وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس : 22]
وتلاحظ أنه سبحانه قال : { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } [الكهف : 42] ولم يقُلْ مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشيء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنْي قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع . ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأَسَفه عليها : { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا } [الكهف : 42] أي : يضرب كَفّاً بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوتاً لا يدري ما يقول ، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها .

ويُقلّب كفَّيْه على أيّ شيء؟ يُقلِّب كفيه ندماً على ما أنفق فيها { وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا } [الكهف : 42] خاوية : أي خَربة جَرْداء جَدْباء ، كما قال سبحانه في آية أخرى : { أَوْ كالذي مَرَّ على قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا } [البقرة : 259]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشها ، وجعلت عاليها سافلها ، فوقع العرش أولاً ، ثم تهدَّمتْ عليه الجدران .

وقوله تعالى : { وَيَقُولُ ياليتني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } [الكهف : 42] بعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام ، فراحَ يضرب كفَّاً بكفٍّ ، أفاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القوليّ الفوري : { ياليتني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } [الكهف : 42] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها : { وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله . . . } .

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43)

أي : ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذي حَلّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذي حاقَ بجنته { وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً } [الكهف : 43] أي : ما كان ينبغي له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا؟

ثم يقول الحق سبحانه : { هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق . . . } .

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)

هنالك : أي في وقت الحالة هذه ، وقتَ أنْ نزلتْ الصاعقة من السماء فأتتْ على الجنة ، وجعلتها خاوية على عروشها ، هناك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله ، فقوله : { هُنَالِكَ } أي : في الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكَد والكَدَر .

و { هُنَالِكَ } جاءت في القرآن في الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا عليه السلام لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقاً : { قَالَ يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37]

وكان زكريا عليه السلام هو المتكفّل بها ، الذي يُحضِر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يأْتِ بها سألها من أيْن؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فأطمع هذا القولُ زكريا في فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } [آل عمران : 38]

و { الولاية } أن يكون لك ولي ينصرك ، فالولي هو الذي يليك ، ويدافع عنك وقت الشدة ،

وفي قراءة أخرى : (هُنَالِكَ الْوِلايَةُ) بكسر الواو يعني الملك ، كما في قوله : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16]

وقوله : { هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً . . } [الكهف : 44] لأنه سيجازى على العمل الصالح بثواب ، هو خير من الدنيا وما فيها { وَخَيْرٌ عُقْباً } [الكهف : 44] أي : خير العاقبة بالرزق الطيب في جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنيّ الكافر ، والفقير المؤمن ، وبيَّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغره النعيم؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعِمَ سبحانه دائماً على بالك ، كي يحافظ لك على نعمتك وإلا لَكُنْتَ مثل هذا الجاحد الذي استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت .

وهذا مثل في الأمر الجزئي الذي يتعلق بالمكلّف الواحد ، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها؛ فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئيّ إلى المثل العام ، فقال تعالى : { واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ . . . } .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يوضح المجهول لنا بما عُلِم لدينا . وأهل البلاغة يقولون : في هذه الآية تشبيه تمثيل؛ لأنه سبحانه شبّه حال الدنيا في قِصَرها وسرعة زوالها بالماء الذي نزل من السماء ، فارتوتْ به الأرض ، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ، ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيماً مُتفتتاً تذهب به الريح .

وهذه صورة كما يقولون منتزعة من مُتعدّد . أي : أن وجه الشبه فيها ليس شيئاً واحداً ، بل عِدّة أشياء ، فإن كان التشبيه مُركّباً من أشياء متعددة فهو مَثَل ، وإنْ كان تشبيه شيء مفرد بشيء مفرد يُسمُّونه مِثْل ، نقول : هذا مِثْل هذا ، لذلك قال تعالى : { فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال } [النحل : 74] لأن لله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهِرة مُثمِرة حُلْوة نَضِرة ، وفجأة لا تجد في يديك منها شيئاً؛ لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحي بالحقارة ، وإلا فأيّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : كما ضربتُ لهم مَثَل الرجلين وما آل إليه أمرهما اضرب لهم مثل الحياة الدنيا وأنها تتقلّب بأهلها ، وتتبدل بهم ، واضرب لهم مثلاً للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى { فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض } [الكهف : 45] أي : اختلط بسببه نبات الأرض ،

وتداخلَ بعضُه في بعض ، وتشابكتْ أغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات في الأرض الخِصْبة ، أما إنْ كانت الأرض مالحة غير خِصْبة فإنها تُخرِج النبات مفرداً ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النبات على حال خُضْرته ونضارته؟ لا ، بل سرعان ما جفَّ وتكسر وصار هشيماً تطيح به الريح وتذروه ، هذا مثلٌ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيَّن ، كما قال تعالى : { حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً . } [يونس : 24]

ثم يقول تعالى : { وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً } [الكهف : 45] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضِدّه ، كما قال سبحانه : { وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } [المؤمنون : 18]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزَّ وأذلَّ ، وقبض وبسط ، وضَرَّ ونفع . .

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذي اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى : { المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا } .

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)

تلك هي العناصر الأساسية في فتنة الناس في الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدَّم المال؟ أهو أغلى عند الناس من البنين؟ نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزُّ أو أغلى؛ إنما لأن المال عام في المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

كما أن البنين لا تأتي إلا بالمال؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكي يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهي : { المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا . . } [الكهف : 46] كلمة { زِينَةُ } أي : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف؛ لأن المؤمن الراضي بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعِزّة ، وربما يُزَرق الولد ويرى الذُّلَّ على يديه ، وكم من المشاكل تُثار في البيوت؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى : { لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ

لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [الشورى : 49-50]

إذن : فالعُقْم في ذاته نعمة وهِبَة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لَعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب في تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذي يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذي قال الله فيه : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ } [النحل : 58]

إنه يريد الولد ليكون عِزْوة وعِزّة . ونسى أن عزة المؤمن بالله لا بغيره ، ونقول : والله لو استقبلت البنت بالفرح والرضا على أنها هِبَة من الله لكانتْ سبباً في أن يأتي لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتي هي لك بالولد الذي يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المال والبنون من زينة الحياة وزخرفها ، وليسا من الضروريات ، وقد حدد لنا النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا ، فقال : « من أصبح مُعَافىً في بدنه ، آمناً في سِرْبه أي : لا يهدد أمنه أحد وعنده قوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »

فما زاد عن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسان إذن يستطيع أن يعيش دون مال أو ولد ، يعيش بقيم تعطي له الخير ، ورضاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : { والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف : 46]

لأن المال والبنين لن يدخلا معك القبر ، ولن يمنعاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات . والنبي صلى الله عليه وسلم حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف؛ لأنه لَحْم رقيق خفيف؛ لذلك احتفظتْ لرسول الله بالكتف وتصدّقت بالباقي ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال : « ماذا صنعتِ في الشاة »؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك صلى الله عليه وسلم وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها » .

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم : « هل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبسْتَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ » .

وهذا معنى : { والباقيات الصالحات خَيْرٌ . . } [الكهف : 46]

والسؤال الذي يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات في الحياة إذن؟ الضروريات في الحياة هي كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهي أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهي النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات إذن هي الدين ومنهج الله والقِيَم التي تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : { والباقيات } [الكهف : 46] ما دام قال { والباقيات } فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التي يخلدون بها في النار .

{ والباقيات الصالحات خَيْرٌ . . } [الكهف : 46] خير عند مَنْ؟ لأن كل مضاف إليه يأتي على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله؟

{ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف : 46]

والأمل : ما يتطلع إليه الإنسان مما لم تكُنْ به حالته ، فإنْ كان عنده خير تطلَّع إلى أعلى منه ، فالأمل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هذا يُبيّن لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأننا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى : { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً . . . } .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47)

أي : اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهي هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسيّر الجبال التي تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقوتها وصلابتها ، وهي باقية على حالها .

ومعنى تسيير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال في آية أخرى : { وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً } [النبأ : 20]

وقال في آية أخرى { وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ } [التكوير : 3]

وقال : { وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ } [المرسلات : 10] وقال : { يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل * وَتَكُونُ الجبال كالعهن } [المعارج : 8-9]

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت في الحياة الدنيا ، وإلا ففي الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى .

ثم يقول سبحانه : { وَتَرَى الأرض بَارِزَةً } [الكهف : 47]

الأرض : كُلّ ما أقلَّك من هذه البسيطة التي نعيش عليها ، وكل ما يعلوك ويُظِلُّك فهو سماء ، ومعنى : { بَارِزَةً } البَرَازُ : هو الفضاء ، أي : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من

أشكال الجبال والمباني والأشجار ، حتى البحر الذي يغطي جزءاً كبيراً من الأرض .
كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها ، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المباني ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحتْ فضاء واسعاً ، ليس فيه مَعْلَمٌ لشيء .
ومن ذلك ما نُسمِّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لي بره) أي : في مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتمي به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أي : صارعه .
{ وَحَشَرْنَاهُمْ } [الكهف : 47] أي : جمعناهم ليوم الحساب؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذي يُجمع فيه هؤلاء .
{ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً } [الكهف : 47] أي : لم نترك منهم واحداً ، الكلُّ معرض على الله ، وكلمة { نُغَادِرْ } [الكهف : 47] ومادة (غدر) تؤدي جميعها معنى الترْك ، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة ، حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّي غديراً؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً في المواطئ .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . . } .

وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48)

قوله تعالى : { وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا . . } [الكهف : 48] العرض : أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظّماً يدلّ على كُلِّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود في العرض العسكري مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده { صَفّاً } أي : صُفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتي صُفوفاً ، كما قال تعالى : { وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً } [الفجر : 22]
أي : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفي ، ولن يكون لأحد منها مفَرٌّ ، وهي صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفي فيها صَفٌّ الصفَّ الذي يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .
وفي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يَحشر الله الخَلْق ثم ينادي : يا عبادي أحضروا حُجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحَاسَبُون مَسْئولون ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .
ولك أنْ تتصوَّر المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميْه؛ لأن ثقل الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف ، وعلى المقعدة في حال الجلوس ، وعلى الجسم كله في حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها ، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين ، فلا شَكَّ أنه وَضْع مؤلم وشاقّ ، يصعُب على الناس حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : { لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الكهف : 48]
أي : على الحالة التي نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّل هذا المعنى في قوله تعالى : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [الأنعام : 94]
وقوله تعالى : { بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً } [الكهف : 48] والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب { زَعَمْتُمْ } [الكهف : 48] والزعْم مطيّة الكذب .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . . } .

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)

قوله تعالى : { وَوُضِعَ الكتاب } [الكهف : 49] أي : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهي إذن صور متعددة ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال : { هَآؤُمُ اقرءوا كِتَابِيَهْ } [الحاقة : 19] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .
وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله فإنه يقول : { ياليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * ياليتها كَانَتِ القاضية * مَآ أغنى عَنِّي مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ } [الحاقة : 25-29]
إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة .
{ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } [الكهف : 49] أي : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه لِيُفزع عباده ويُحَذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون في وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .
فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتي نزوع القول : { وَيَقُولُونَ ياويلتنا } [الكهف : 49] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانُك فاحضري .
ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم عليه السلام لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت في ذرية آدم؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : { يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي . . } [المائدة : 31] { يَاوَيْلَتَا } [المائدة : 31] يا هلاكي كأن يتحسَّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة؛ لكي لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تَفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

قوله تعالى : { مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا } [الكهف : 49] أي : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها { وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً } [الكهف : 49] فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطّر في كُتبهم { وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف : 49] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه : { وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ . . . } .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50)

تكررتْ قصة سجود الملائكة لآدم عليه السلام كثيراً في القرآن الكريم ، وفي كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطةً معينة ، والحق سبحانه في هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أنْ تذكّروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أنْ يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذه العداوة ، فإذا حدّثكم بشيء فاذكروا عداوته لكم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يُحذّرنا من إبليس فإنه يُربّي فينا المناعة التي نُقاومه بها ، والمناعة أنْ تأتيَ بالشيء الذي يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعه في الجسم في صورة مكروب خامد ، وهذا هو التطعيم الذي يُعوّد الجسم على مدافعة المرض وتغلَّب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكّرنا ما كان منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : { أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 62]

فانتبهوا ما دُمنا سنُسيّر الجبال ، ونُسوّي الأرض ، ونحصر لكلٍّ كتابه ، فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفَاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أُذكّركم من الآن في وقت السَّعة والتدارك ، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والأمر هنا جاء للملائكة : { وَإِذْ قُلْنَا للملائكة . . } [الكهف : 50] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمَرُون . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعني الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذي آمُركُم أنْ تكونوا في خدمته .

لذلك سمَّاهم : المدبّرات أمراً ، وقال تعالى عنهم : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله } [الرعد : 11] فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفي خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعلَه في خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحَسَمَتْه ، فقال تعالى : { إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن . . } [الكهف : 50] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذي يُوضّح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار في أنْ يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألاَّ يفعل : { فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . } [الكهف : 50] أي : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .

. } [الكهف : 50] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذي خلقكم ورزقكم ، فكان أَوْلَى بهذه الولاية .

و { وَذُرِّيَّتَهُ . . } [الكهف : 50] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل مَنْ كان على طريقته في الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . } [الأنعام : 112]

{ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً } [الكهف : 50] أي : بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذي أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم وَلياً ، وتتركوا ولاية الله الذي أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . . } .

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)

إن هذا الشيطان الذي واليتموه من دون الله ، وأعطيتموه المِيْزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خَلْق السماوات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خَلْق السماوات والأرض كان قبل خَلْقهم ، وكذلك ما شَهِدوا خَلْق أنفسهم؛ لأنهم ساعة خَلْقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكي يخبروكم .

{ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] أي : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونوني فيه .

والعَضُد : هو القوة التي تُسعفك وتسندك ، وهو مأخوذ من عَضُد الإنسان ، حيث يزاول أغلب أعماله بيده ، وحين يزاول أعماله بيده تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكُلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّم أو موتور هو العضد ، وفي حركة اليد ودقتها في أداء مهمتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دِقَّة الصَّنْعة .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً

يقوم بعدة حركات لكي يُحرّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرّك يدك كما شئْتَ دون أن تعرف ماذا يحدث؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكّر فيها دون جهد منك أو تدبير؟

فكل أجزائك مُسخَّرة لإرادتك ، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور؛ لذلك إياك أنْ تظن أنك خَلْق ميكانيكي ، بل أنت صَنْعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقِف جزءاً منك أمر المخ أنْ يقطعَ صِلَته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة موسى : { سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . } [القصص : 35] أي : نُقوّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ . . . } .

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52)

يعني : واذْكر يا محمد ، ولتذْكُرْ معك أمتك هذا اليوم : { وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ . . } [الكهف : 52] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائي الذين اتخذتموهم من دوني . وزعمتم : أي : كذبتم في ادعائكم أنهم آلهة { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . } [الكهف : 52]

وهذا من سماجتهم وتبجُّحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذَّبوه ، لكنهم تمادَوْا { فَدَعَوْهُمْ . . } [الكهف : 52] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم مَنْ قالوا : عيسى . ومنهم مَنْ قالوا : العزير ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم؟

ومنهم مَنِ اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم مَنْ عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهم ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنّا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طَوْعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . } [الزمر : 3]

ولكن ، أنَّى لهم ما يريدون؟ فقد تقطعتْ بينهم الصلات ، وانقطعت حجتهم { فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . } [الكهف : 52] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً سحيقا : { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً . . } [الكهف : 52]

والمَوْبِق : المكان الذي يحصل فيه الهلاك ، وهو وَادٍ من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعي والمدعو مكاناً مُهْلكاً ، فلا الداعي يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتَصرَ للداعي ويُسعفه ، لأن بينهم منبعَ هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ } [الشورى : 34] يعني : يهلكهن .
ومن العجيب أن تكون هذه أولَ إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : { نَادُواْ شُرَكَآئِيَ . . } [الكهف : 52] استجابوا لهذا الأمر ، في حين أنهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَرَءَا المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا . . . } .

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53)

رأى : الرؤية : وقوع البصر على المرئيّ ، والرؤية هنا مِمّن سيُعذّب في النار ، وقد تكون الرؤية من النار التي ستعذبهم؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } [ق : 30] أي : هاأنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم؟
والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله . إذن : فالرؤية هنا متُبَادلة : المعذِّب والمعذَّب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .
وقوله تعالى : { فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا . . } [الكهف : 53] الظن هنا يُراد منه اليقين . أي : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء في قول الحق سبحانه : { الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ . . } [البقرة : 46]
أي : يوقنون .
{ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً . . } [الكهف : 53] أي : في حين أن بينهما مَوْبقاً ، وأيضاً لا يجدون مفرّاً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِق موجود ، والمصْرِف مفقود .
ثم يقول تبارك وتعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . . } .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشيء إلى أشياء متعددة ، كما يصرّف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتي من ناحية واحدة ، بل تأتي مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صَرّف الله الأمثال . أي : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها .
والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسٍّ ليتفهموه تفهّماً دقيقاً .
وما دام أن الحق سبحانه صرّف في هذا القرآن من كل مثَل ، فلا عُذْر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتّى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم؛ لذلك ترى الأمي يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير

يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته ، بل وأكثر من ذلك ، فالمتخصص في أيّ علم من العلوم يجد في كتاب الله أدقّ التفاصيل؛ لأن الحق سبحانه بيَّن فيه كل شيء .

ثم يقول تعالى : { وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [الكهف : 54] أي : كثير الخصومة والتنازع في الرأي ، والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه ، والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبرر مذهبك ولو خطأً ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى أو الأغراض .

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : { وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [العنكبوت : 46]

وقال : { وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [النحل : 125] « والنبي صلى الله عليه وسلم لما مرَّ على عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدو أنهما كانا مستغرقيْن في نوم عميق ، فنادى عليهما صلى الله عليه وسلم » ألا تصلون؟ « فردَّ الإمام علي قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : { وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } » [الكهف : 54]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أنْ يُدلّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ . ولو دققتَ في رأيه لوجدتَ له هوىً يسعى إليه ويميل إلى تحقيقه ، وترى ذلك واضحاً إذا اخترتَ أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلاً لأنه أسهلها وأقربها ، فإذا به يقترح عليك طريقاً آخر ، ويحاول إقناعك به بكل السُّبل ، والحقيقة أن له غرضاً في نفسه وهوىً يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ . . . } .

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55)

ما الذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن ، وصرّفنا فيه من الآيات والأمثال ، بعد أن جاءهم مطابقاً لكل الأحوال؟

وفي آية أخرى ، أوضح الحق سبحانه سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال تعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلّ مَثَلٍ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن زُخْرُفٍ أَوْ

ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ } [الإسراء : 89-93]
فكُلُّ هذه التعنّتات وهذا العناد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان بالله ، والحق سبحانه وتعالى حينما يأتي بآية طلبها القوم ، ثم لم يؤمنوا بها يُهلكهم؛ لذلك قال بعدها : { إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين . . } [الكهف : 55] فهذه هي الآية التي تنتظرهم : أن تأتيهم سُنَّة الله في إهلاك مَنْ كذَّب الرسل .
فقبل الإسلام ، كانت السماء هي التي تتدخل لنُصْرة العقيدة ، فكانت تدكُّ عليهم قُراهم ومساكنهم ، فالرسول عليه الدعوة والبلاغ ، ولم يكن من مهمته دعوة الناس إلى الحرب والجهاد في سبيل نَشْر دعوته ، إلا أمة محمد فقد أَمِنها على أن تحمل السيف لتُؤدِّب الخارجين عن طاعة الله .
وقوله تعالى : { وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ . . } [الكهف : 55] أي : على ما فات من المهاترات والتعنُّتات والاستكبار على قبول الحق { إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين . . } [الكهف : 55] أي : بهلاك المكذبين { أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً . . } [الكهف : 55] أي مُقابِلاً لهم ، وعياناً أمامهم ، أو { قُبُلاً } جمع قبيل ، وهي ألوان متعددة من العذاب ، كما قال تعالى : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . } [الطور : 47]
أي : لهم عذاب غير النار ، فألوان العذاب لهم متعددة .
ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يأبه لعمل الكفار ، ولا يهلك نفسه أَسَفاً على إعراضهم ، فيقول سبحانه : { وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . . . } .

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56)

قلنا : إن الجدل قد يكون بالحق ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الذين كفروا هنا ، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كل الحِيَل لدحْضِ الحق أي : ليُعطّلوه ويزيلوه { واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُواً } [الكهف : 56] أي : الآيات الكونية التي جاءت لتصديق الرسل ، وكذلك آيات القرآن ، وآيات الأحكام اتخذوها سُخْرية واستهزاءً ، ولم يعبأوا بما فيها من نذارة .
ولذلك قال الحق سبحانه : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا . . . } .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)

{ وَمَنْ أَظْلَمُ . . } [الكهف : 57] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأنْ يدَّعي صاحبك أنك لم تصِلْه ، ولم تصنع معه معروفاً ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معك كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .

إنما لو عرضْتَ المسألة على سبيل الاستفهام فقُلْتَ له : ألم أصنع معك كذا؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شيء من خَصْم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ . . } [الكهف : 57] ؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن : لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

وقوله { فَأَعْرَضَ عَنْهَا . . } [الكهف : 57] تركها { وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ . . } [الكهف : 57] نسى السيئات ، وكان من الواجب أن ينتبه إلى هذه الآيات فيؤمن بها ، لعل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيُبدِّل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ . . } [الكهف : 57]

أكنة : أغطية جمع كِنّ ، فجعل الله على قلوبهم أغطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه؛ لأنه رَبٌّ يعطي عبده ما يريد .

كما قال عنهم في آية أخرى : { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [البقرة : 10]

وقال تعالى في هذا المعنى : { خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة : 7]

ومعنى { أَن يَفْقَهُوهُ . . } [الكهف : 57] أي : يفهموه ، يفهموا آيات الله؛ لأنهم سبق أنْ ذُكِّرُوا بها فأعرضوا عنها ، فحرَمهم الله فقهها وفهمها .

وقوله تعالى : { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً . . } [الكهف : 57] أي : صمم فلا يسمعون { وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً } [الكهف : 57] وهذا أمر طبيعي ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسد عليهم منافذ العلم والهداية؛ لأن الهدى ناشئ من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبك بالرضا ، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام ، فتسمع بالأذن ، وتقبل بالقلب ، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أُمِرَتْ به .

وما دام في الأذن وَقْر وصَمَمٌ فلن تسمع ، وإنْ سمعتْ شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلا بما شُحِن به القلب من عقائد .

ويقول الحق سبحانه : { وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة . . . } .

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58)

فمن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم ، بل أمهلهم وتركهم؛ لأن لهم موعداً لن يهربوا منه ، ولن يُفلِتوا ، ولن يكون لهم مَلْجأ يحميهم منه ، ولا شكَّ أن في إمهالهم في الدنيا حكمة لله بالغة ، ولعل الله يُخرِج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به ، ومَنْ يحمل راية الدين ويدافع عنه ، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام ، فمِنْ ظَهْر أبي جهل جاء عكرمة ، وأمهل الله خالد بن الوليد ، فكان أعظمَ قائد في الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ . . . } .

وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)

تلك : أداة إشارة لمؤنث هي القرى ، والكاف للخطاب ، والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمتُه مُنْضوية في خطابه؛ لأن خطابَ الرسول خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسٍّ ، كما جاء في قوله تعالى : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17]

فأين هذه القُرَى؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراها النبي صلى الله عليه وسلم ويراها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم صالح ، وقرى قوم لوط ، وقد قال تعالى عنها : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الصافات : 137-138]

إذن : فتلك إشارة إلى موجود مُحَسٍّ دَالٍّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حلَّ بها من بَأْسِه الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين .

وكلمة { القرى } جمع قرية ، وتُطلَق على المكان الذي تتوفّر فيه مُقوّمات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات ومُقوّمات الحياة العادية؛ لأن القرية لا تُطلَق إلا على مكان تتسع فيه مُقوّمات الحياة اتساعاً يكفي لمن يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرَى . فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أُمٌّ ، نسميها (أم القرى) .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين . . . } .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60)

قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ . . } [الكهف : 60] أي : اذكر يا محمد وقت أنْ قال موسى لفتاه ، وفتى موسى هو خادمه يوشع ابن نون ، وكان من نَسْل يوسف عليه السلام وكان

يتبعه ويخدمه ليتعلم منه .

{ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين . . } [الكهف : 60]

لكن ، ما حكاية موسى مع فتاه؟ وما مناسبتها للكلام هنا؟

مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم في محمد : أهو مُحِقٌّ أم لا؟ فقال اليهود لوفد مكة : اسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبي : اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر ، والرجل الطواف الذي طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : « في الغد أجيبكم » .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابهم ، لكنه سكت إلى أن يأتي الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه صلى الله عليه وسلم مع ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه .

ومرَّتْ خمسة عشر يوماً دون أن يُوحَى لرسول الله في ذلك شيء ، حتى شق الأمر عليه ، وفرح الكفار والمنافقون؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة ليندوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شيء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم في هذه المسألة إلا بوحي من الله؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رأيه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطْءَ في هذه المسألة دليلُ صِدق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتردَّ على مهاترات القوم ، وتُبيّن لهم أن النبي لا يعلم كل شيء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شيء؟ وهل يقدح في مكانته أنه لا يعرف مسألة ما؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفار مكة : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية ، وهاهو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يا مَنْ لقنتم كفار مكة هذه الأسئلة وأظهرتم الشماتة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحي ، اعلموا أن إبطاء الوحي لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أنْ تلفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام يُقال : إنه سأل الله وكان له دلال على ربه :

{ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ . . } [الأعراف : 143] والذي أطمعه في هذا المطلب أن الله كلَّمه : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17] فأطال موسى الكلام مع ربه ، ومَنْ الذي يكلمه الله ولا يطيل أمد الأُنْس بكلام الله؟ لذلك قال موسى : { هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا

على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18]

وهكذا أطال موسى مدة الأنس بالله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأله : يا ربّ ، أيوجد في الأرض أعلم مني؟ فأجابه ربُّه تبارك وتعالى : نعم في الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فاذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدي هو أعلم منك ، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مَجْمع البحرين .

وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام خطب مرة فسُئِل : مَنْ أعلم؟ فقال : أنا يعني من البشر ، فأخبره الله تعالى : لا بل في الأرض من هو أعلم منك من البشر حتى لا يغترَّ موسى عليه السلام بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : { لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين } [الكهف : 60]

لا أبرح : أي لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعني : لا أترك مكاني الذي أنا فيه ، لكنها تعني : لا أترك ما أنا بصدده ، فإنْ كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإنْ كنتُ ماشياً لا أترك المشي ، وقد قال موسى عليه السلام هذا القول وهو يبتغي بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردت مادة (برح) في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : { فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي أبي . . } [يوسف : 80] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذي أخذ عليهم العهد والميثاق أنْ يأتوا به ويُعيدوه إليه .

و « مَجْمَع البحرين » أي : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقي مثلاً دجلة والفرات في شَطِّ العرب .

وقوله : { أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً } [الكهف : 60]

الحُقُب : جمع حِقْبة ، وهي الفترة الطويلة من الزمن ، وقد قدَّروها بحوالي سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى عليه السلام مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الحِقْبة سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سِرْتُ مائتين وعشرة سنين؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشُوقاً إلى رؤية هذا الرجل الأعلم منه ، كيف وهو النبي الرسول الذي أوحى الله إليه؛ لذلك أخبره ربه أن عِلْم هذا الرجل علم من لدنا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا . . . } .

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61)

{ بَلَغَا } أي : موسى وفتاه { مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا } أي : مجمع البحرين { نَسِيَا حُوتَهُمَا } أي : حدث النسيان منهما معاً ، وإنْ كان حمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه ، فكان على موسى أنْ يُذكِّره به ، فرئيس القوم لا بُدَّ أن يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرَّكْب ، وكانت العادة أنْ يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقده وينظر لعل واحداً نسى شيئاً ، إذن : كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذكِّر فتاهُ بما معهم من لوازم الرحلة .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفي بعض البلاد يُطلِقون على كل سمك حُوتاً ، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاعوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوي في مكتل .

وقوله تعالى : { فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً } [الكهف : 61] أي : خرج الحوت المشوي من المكتل ، وتسرَّب نحو البحر ، والسَّرَب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القِرْبة مثلاً؛ ذلك لأن مستوى الماء في القِرْبة أعلى فيتسرَّب منها ، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المشويّ ، وتعود له الحياة ، ويتوجّه نحو البحر؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا . . . } .

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62)

أي : جاوزا في سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى عليه السلام لفتاه : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنَّصَب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت .

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)

هذا كلام فتى موسى : أرأيت : أخبرني إذْ لجأنا إلى الصخرة عند مَجْمع البحرين لنستريح { فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت . . } [الكهف : 63] ونلحظ أنه قال هنا { نَسِيتُ } وقال في الآية السابقة { نَسِيَا . . } [الكهف : 61] ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرف في كل شيء؛ لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير في شيء ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسِيه ما هو منُوط به من أمر الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت ، ويقول : { وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ }

[الكهف : 63] فالشيطان هو الذي لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكْر الحوت .

وقوله تعالى : { واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً } [الكهف : 63] أي : اتخذ الحوتُ طريقه في البحر عَجَباً ، في الآية السابقة قال : { سَرَباً } [الكهف : 61] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول { عَجَباً } لأنه يحكي ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشويّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من العجائب؛ لأنها خرجتْ عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . . } .

قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64)

أي : قال موسى عليه السلام { ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . . } [الكهف : 64] أي : نطلب ، فهذا المكان الذي فُقِد فيه الحوت هو المكان المراد ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف عنوان المكان ، وهو مَجْمع البحرين ، حتى يلتقي البحران فيصيران بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلاَّ في مسرح بني إسرائيل في سيناء . وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، ويلتقيان في بحر واحد عند رأس محمد .

ثم يقول تعالى : { فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً } [الكهف : 64] أي : عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، ومعنى : { قَصَصاً } [الكهف : 64] أي : بدقة إلى أنْ وصلاَ إلى المكان الذي تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذي ضربه الله تعالى لموسى – عليه السلام – حيث سيجد هناك العبد الصالح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءاتيناه رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا . . . } .

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإنْ كانت لله تعالى فهي العزّ والشرف ، وإنْ كانت لغير الله فهي الذلُّ والهوان ، وقلنا : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال سبحانه : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . } [الإسراء : 1]

كما أن العبودية لله يأخذ فيه العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده .

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : { آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا . . } [الكهف : 65] وقد تكلم العلماء في معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردتْ في القرآن بمعنى النبوة ، كما في قوله تعالى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

فكان رَدُّ الله عليهم : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . } [الزخرف : 32]

أي : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتي على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملَك؛ لذلك قال تعالى : { آتَيْنَاهُ . . } [الكهف : 65] نحن ، وقال : { مِّنْ عِندِنَا . . } [الكهف : 65]

فالإتيان والعندية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : { وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً . . } [الكهف : 65] أي : من عندما لا بواسطة الرسل : لذلك يسمونه العلم اللدني ، كأنه لا حرجَ على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويُنعِم عليه بعلم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أنْ نُفرِّق بين علم وفيوضات تأتي عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تأتي من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده؛ لأن الرسول يأتي بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها عِلَل باطنة فوق العِلل الظاهرية ، وهذه هي التي اختصَّ الله بها هذا العبد الصالح (الخضر) كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم .

والدليل على ذلك أن النبي يأتي بأحكام تُحرّم القتل وتحرم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى عليه السلام على هذه الأعمال؛ لأنه لا عِلْمَ له بعلتها ، ولو أن موسى عليه السلام علم العلّة في خَرْق السفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلم موسى غير علم الخضر؛ لذلك قال له : { إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف : 67-68]

فهذا عِلْم ليس عندك ، فعِلْمي من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما في الحقيقة لا يتعارضان ، وإنْ كان لعلم الولاية عِلَل باطنة ، ولعلم الرسالة عِلَل ظاهرة .

ثم يقول تعالى : { قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ . . . } .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)

كأن موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقّي العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقُل له مثلاً : إن الله أمرني أن أتبعك ، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب : { هَلْ أَتَّبِعُكَ . . } [الكهف : 66]

والرشد : هو حُسْن التصرّف في الأشياء ، وسداد المسلك في علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشْد يكون في سنّ البلوغ ، لكن لا يعني هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : { وابتلوا اليتامى } [النساء : 6] أي :

اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال في كفالتك ، فعليك أنْ تكلّفه بعمل لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرَّف فيه تحت عينك وفي رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أنْ تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله في مَعْزل عنها إلى أنْ يبلغَ الرشْد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإنْ فشل كانت التجربة في ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتمُّ وهو ما يزال في ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه . { حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ . . } [النساء : 6] وهو سن البلوغ ، ولم يقُلْ بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً . . } [النساء : 6] فعلى الوصيّ أنْ يُراعِيَ هذا الترتيب :

أنْ تُراعي اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به في مُعْتَرَك الحياة وتجاربها حتى يتمكن من مواجهة الحياة ولا يتخبط في ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإن علمت رشده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرف فيه ، فإن لم تأنس منه الرشد وحسن التصرف فلا تترك له المال يبدده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى في هذا المعنى : { وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . } [النساء : 5] ولم يقُلْ : أموالهم؛ لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهه ، بل هو مالكم لِتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكد من رُشْده .

إذن : فالرشد الذي طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة في تناول الأشياء ، لكن هل يعني ذلك أن موسى عليه السلام لم يكن راشداً؟ لا ، بل كان راشداً في مذهبه هو كرسول ، راشداً في تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذي طلبه فهو الرشد في مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح في مكانة النبوة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 85] وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : { وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً } [طه : 114]

لذلك يقول الشاعر :

كُلّما ازْدَدْتُ عُلوماً ... زِدْتُ إيقَانَاً بجْهلي

لأن معنى أنه ازداد عِلْماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلمَ غداً .

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محباً للعلم ، تراه كلما عَلِم قضية اشتاق لغيرها ، فهو في نَهَمٍ دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال » .

والشاعر الذي تنَّبه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزَّهْو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قالتِ النفْسُ قَدْ علِمْتُ كَثِيراً ... قُلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسيرُ

ثم جاء بمثل توضيحي :

تَمْلأُ الكُوزَ غَرْفَةٌ من مُحِيط ... فَيَرى أنَّهُ المحيطُ الكَبيرُ

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } .

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67)

هنا يبدأ العبد الصالح يُملي شروط هذه الصُّحْبة ويُوضّح لموسى عليه السلام طبيعة عِلْمه ومذهبه ، فمذهبُك غير مذْهبي ، وعلمي من كيس غير كيسك ، وسوف ترى مني تصرفات لن تصبر عليها؛ لأنه لا عِلْم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عُذْراً على عدم صَبْره معه؛ لذلك يقول : { وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } .

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68)

فلا تحزن لأني قُلت : لن تستطيع معي صبراً؛ لأن التصرفات التي ستعترض عليها ليس لك خُبر بها ، وكيف تصبر على شيء لا عِلْمَ لك به؟

ونلحظ في هذا الحوار بين موسى والخضر عليهما السلام أدبَ الحوار واختلافَ الرأي بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلاً منهما يقبَل رأْيَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويُكفِّر بعضهم بعضاً ، فإذا رأَوْا مثلاً عبداً مَنْ عباد الله اختاره الله بشيء من الفيوضات ، فكانت له طريقة وأتباع نرى من ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلى في قول الخضر : { وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف : 68] مظهر من مظاهر أدب المعلّم مع المتعلِّم ، حيث احترم رأيه ، والتمس له العُذْر إن اعترض عليه ، فلكُلٍّ منهما مذهبه الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخَر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط؟ { قَالَ ستجدني إِن شَآءَ الله . . } .

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69)

أي : أنا قابل لشروطك أيُّها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلك ولن أعارضك في شيء . وقدّم المشيئة فقال : { إِن شَآءَ الله . . } [الكهف : 69] ليستميله إليه ويُحَنَّن قلبه عليه { صَابِراً . . } [الكهف : 69] على ما تفعل مهما كان { وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً } [الكهف : 69] وهكذا جعل نفسه مأموراً ، فالمعلم آمراً ، والمتعلّم مأمور .

قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70)

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التي يجب اتباعها في مصاحبته : إنْ تبعتني فلا تسألْني حتى أخبرك ، وكأنه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حِدة .

ثم يقول الحق سبحانه : { فانطلقا . . . } .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71)

{ فانطلقا } سارا معاً ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها ، عندها لم يُطِق موسى هذا الأمر ، وكبُرت هذه المسألة في نفسه فلم يصبر عليها فقال : { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } [الكهف : 71] أي : أمراً عجيباً أو فظيعاً . ونسى موسى ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كأن الحقَّ تبارك وتعالى يريد أن يُعلِّمنا أن الكلام النظري شيء ، والعمل الواقعي شيء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذي يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً؛ لأن الكلام قد يُقَال في أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رَهْن أمرك ورقبتي لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يكتف بالاستفهام : { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا . . } [الكهف : 71] بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً فظيعاً؛ لأن كلام موسى النظري شيء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شيء آخر؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعي إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72)

وهذا درس آخر من الخضر لموسى عليهما السلام يقول : إن كلامي لك كان صادقاً ، وقد حذرتُك أنك لن تصبرَ على ما ترى من تصرفاتي ، وها أنت تعترض عليَّ ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاَّ تسألني عن شيء حتى أُخبرك أنا به .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ . . . } .

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73)

يعتذر موسى عليه السلام عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه مسامحته وعدم مؤاخذته { وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً } [الكهف : 73] أي : لا تُحمّلني من أمر اتباعك عُسْراً ومشقة .
فسامحه الخضر وعاود السير .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74)

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه ، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق ، فبأيّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذي لم يبلغ رُشْده؟ لذلك قال في الأولى : { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } [الكهف : 71] أي عجيباً أما هنا فقال : { لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً } [الكهف : 74] أي : مُنكَراً؛ لأن الجريمة كبيرة .
والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التي لم تُلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .
وكذلك يأتي الرد من الخضْر مخالفاً للرد الأول ، ففي المرة الأولى قال : { أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } [الكهف : 72]
أي : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال : { قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75)

وأكَّدها وأرده بالكلام أي : قُلْت لك أنت .
ثم بعد المرة الثانية التي يقاطع فيها موسى معلمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)

وهكذا قطع موسى عليه السلام الطريق على نفسه ، وأعطى لها فرصة واحدة يتم بعدها الفراق؛ لذلك في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحمنا الله ، ورحم أخي موسى لو صبر لعرفنا الكثير » .
فهذه هي الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .

ومعنى : { قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً } [الكهف : 76] أي : قد فعلت معي كل ما يمكن فعله ، وليس لي عُذْر بعد ذلك .

ثم يقول سبحانه : { فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ . . . } .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)

استطعم : أي طلب الطعام ، وطلَبُ الطعام هو أصدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يدخره ، إنما الطعام لا يعترض عليه أحد ، ومنْعُ الطعام عن سائله دليل بُخْل ولُؤْم متأصل في الطباع ، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التي مَرّا بها وطلبَا الطعام فمنعوهما .

والمتأمل في الآية يجد أن أسلوب القرآن يُصوّر مدى بُخْل هؤلاء القوم ولُؤْمهم وسُوء طباعهم ، فلم يقُلْ مثلاً : فأبوا أن يطعموهما ، بل قال : { فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا . . } [الكهف : 77] وفرْق بين الإطعام والضيافة ، أَبَوْا الإطعام يعني منعوهما الطعام ، لكن أَبَوْا أن يُضيّفوهما ، يعني كل ما يمكن أنْ يُقدَّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنْتَهى ما يمكن تصوُّره من لُؤْمْ هؤلاء الناس .

وتلحظ أيضاً تكرار كلمة { أَهْلَ } فلما قال : { أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ } [الكهف : 77] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : { استطعمآ أَهْلَهَا . . } [الكهف : 77] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول؟ بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرّا على كل بيت في القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخْل ولُؤْم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ . . } [الكهف : 77]

أي : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وَجَدا جداراً يريد أنْ ينقضّ ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإنْ جاءت لغير العاقل فهي بمعنى : قَرُب . أي : جداراً قارب أنْ ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدُّع والشُّروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحي وضَيّقي الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره في التفكير والنظر ويُدققون في المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكون للجدار إرادة على أساس أن لكل شيء في الكون حياةً تناسبه ، ولله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

ألم يقل الحق سبحانه : { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض . . } [الدخان : 29] فإذا كانت السماء تبكي فقد تعدَّتْ مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : { فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض . . } [الدخان : 29] دليل على أنها تبكي على فَقْد الصالحين .

وقد سُئِل الإمام علي رضي الله عنه عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في السماء وموضوع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مُصلاَّه ، أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله » .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكَوْن من حوله ، فالكون ساجد لله مُسبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينُبو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أي : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاصٍ ، والمكان مُسبِّح وهو غافل .

وعلى هذا الفهم فقوله تعالى : { يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ . . } [الكهف : 77] قول على حقيقته . إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث » .

ورُوِي في السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى في يده صلى الله عليه وسلم .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغي أن نقول : سَبَّح الحصى في يد رسول الله؛ لأن الحصى يُسبِّح أيضاً في يد أبي جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح الحصى في يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء ، فقد رأينا العلماء في العصر الحديث يبحثون في لغة للأسماك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التي أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلزال وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلزال مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فِعْل الخضر مع الجدار الذي قارب أن ينقض { فَأَقَامَهُ . . } [الكهف : 77] أي : أصلحه ورمَّمه { قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . . } [الكهف : 77]

هذا قول موسى عليه السلام لما رأى لُؤْمَ القوم وخِسّتهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطْعمونا ، بل لم يقدموا لنا مجرد المأوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجرة؟

وجاء هذا القول من موسى عليه السلام لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . . . } .

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)

{ قَالَ } أي : العبد الصالح { هذا } أي : ما حدث منك من قولك : { قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً } [الكهف : 77] وقد سبق أن اشترط موسى عليه السلام على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفِراقُ بينهما ، وكأن العبد الصالح لم يَأْتِ بشيء من عنده ، لقد قال موسى : { إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي } [الكهف : 76] وها هو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : { قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . . } [الكهف : 78]

قوله : { هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . . } [الكهف : 78] تُعد دُستوراً من الحق سبحانه وتعالى ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغي أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلزم أدبه في حدود ما علَّمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً } [الكهف : 78] أي : لن أتركك وفي نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون في نفسك مني شيء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التي اعترضْتَ عليها لتعلم أن الله لم يخدعْكَ ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعلّمك شيئاً لم تكُنْ تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تِلْو الآخر ، كما لو عتبَ عليك صاحبك في أمر ما ، وأنت حريص على مودَّته فتقول له : أمهلني حتى أوضح لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتُزيل ما التبس عليه من هذا الأمر .

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبة ، فلا يجوز بعد المصاحبة أنْ نفترقَ على الخلاف ، ينبغي أن نفترق على وِفَاق ورضا؛ لأن الافتراق على الخلاف يُنمّي الفجوة ويدعو للقطيعة ، إذن : فقبل أنْ نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . . } .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79)

قوله : { لِمَسَاكِينَ } اللام هنا للملكية ، يعني مملوكة لهم ، وقد حسمتْ هذه الآيةُ الخلافَ بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ، وأيهما أشدّ حاجة من الآخر ، وعليها فالمسكين : هو مَنْ يملك شيئا لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل في البحر ، وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى : { يَعْمَلُونَ فِي البحر . . } [الكهف : 79] أي : مجال عملهم البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافه .

وقوله : { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا . . } [الكهف : 79] المتكلم هنا هو الخِضْر عليه السلام

فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عَمَّا لا يليق ، أما في الخير فنسب الأمر إلى الله فقال : { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا . . } [الكهف : 82] لذلك فإنه في نهاية القصة يُرجع كل ما فعله إلى الله فيقول : { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . . } [الكهف : 82] ثم يقول تعالى : { وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } [الكهف : 79] كلمة : كل ترسم سُوراً كُلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخْذ كل سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجةَ له في المعيبة الغير صالحة ، وكأن في سياق الآية صفة مُقدَّرة : أي يأخذ كل سفينة صالحة غَصْباً من صاحبها .

والغَصْب : ما أُخذ بغير الحق ، عُنْوةً وقَهْراً ومُصَادرة ، وله صور متعددة منها مثلاً السرقة : وهي أَخْذ المال من حِرْزه خفية ككسر دولاب أو خزينة ، ومنها الغَصْب : وهو أخْذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفي هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخْذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلةٍ ما ، يخطف الشيء ويفرّ به دون أن تتمكّن من اللحاق به ، فالخَطْفُ إذن يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تستره .

وما دام الأمر هنا غَصْباً فلا بُدَّ لمالك الشيء أنْ يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حَقِّه ، وقد يتوسل إليه أنْ يترك له ماله ، فالمسألة إذن فيها كلام وأخْذٌ وَرَدٌّ .

إذن : خَرْق السفينة في ظاهره اعتداء على ملك مُقوّم ، وهذا منهيّ عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً في نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو عَلِم موسى عليه السلام هذه الحكمة لَبادرَ هو إلى خَرْقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلينا أن نُحوِّل السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعيبها بخَرْقها ، أو بخلْع لَوْح منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أَخْذها .

وكلمة { وَرَآءَهُم } هنا بمعنى أمامهم؛ لأن هذا الظالم كان يترصَّد للسفن التي تمر عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو في الحقيقة أمامهم ، على حَدِّ قوله تعالى : { مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ } [إبراهيم : 16] وهل جهنم وراءه أم أمامه؟

وتستعمل وراء بمعنى : بَعْد ، كما في قوله تعالى : { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود : 71]

وتأتي وراء بمعنى : غير . كما في قوله تعالى في صفات المؤمنين : { والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون } [المؤمنون : 5-7]

وفي قوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ . . } [النساء : 23] إلى . . { وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذلكم . . } [النساء : 24]

وقد تستعمل وراء بمعنى خلف ، كما في قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ . . } [آل عمران : 187]

إذن : كلمة { وَرَاءَ } جاءتْ في القرآن على أربعة معَانٍ : أمام ، خلف ، بعد ، غير . وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات ، والملَكة العربية قادرة على أن تُميِّز المعنى المناسب للسياق ، فكلمة العَيْن مثلاً تأتي بمعنى العين الباصرة . أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذي يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه في قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفي عليه : { وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ . . } .

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80)

الغلام : الولد الذي لم يبلغ الحُلُم وسِنّ التكليف ، وما دام لم يُكلَّف فما يزال في سِنِّ الطهارة والبراءة من المعاصي؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : { أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً . . } [الكهف : 74] أي : طاهرة ، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام في هذه السِّنِّ خَيْر له ومصلحة قبل أنْ تلوّثه المعاصي ، ويدخل دائرة الحساب .

إذن : فطهارته هي التي دعتْنَا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه؟

يقول تعالى : { فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ . . } [الكهف : 80] وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : { ياأيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم } [التغابن : 14]

والفتنة بالأولاد تأتي من حِرْص الآباء عليهم ، والسعي إلى جعلهم في أحسن حال ، وربما كانت الإمكانات غير كافية ، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد عَلِم الحق سبحانه وتعالى أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يُرِد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكأن قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أُسْدِي إلى كليْهما ، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدَث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أَنْ يشتد الحزن عليه ، وننعي طفولته التي ضاعتْ وشبابه الذي لم يتمتع به ، ونحن لا ندري ما أُعِدَّ له من النعيم ، لا ندري أن مَنْ أُخِذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحدِّد له مسكن في الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجري فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد ، ولذلك يُسمَّوْن

« دعاميص الجنة » .

ثم يقول تعالى : { فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً } [الكهف : 80]

خشينا : خِفْنا . فالواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً في فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)

ولا يفوت الخضر عليه السلام أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أُحب هذا العمل وأريده ، إنما الذي يُبدّل في الحقيقة هو الله تعالى : { فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً } [الكهف : 81] فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : { خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً . . } [الكهف : 81] أي : طُهْراً { وَأَقْرَبَ رُحْماً } [الكهف : 81] لأنهما أرادا الولد لينفعهما في الدنيا ، وليكون قُرَّة عَيْن لهما ، ولما كانت الدنيا فاتنة لا بقاءَ لها ، وقد ثبت في علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويْه ، وسيجلب عليهما المعاصي والسيئات ، وسيجرّهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة في أخذه بدل أنْ يتمتّعا به في الدنيا الفانية ، ويشقيَا به في الآخرة الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة . . . } .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)

{ لِغُلاَمَيْنِ } أي : لم يبلغا سِنَّ الرشْد ، وفوق ذلك هما يتيمان .

وكان تحت هذا الجدار المائل كَنْز لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أنْ تتصوّر ما يحدث لو تهدَّم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأْوى ، إنَّ أقل ما يُوصفون به أنهم لِئَام لا يُؤتمنون على شيء . ولقد تعوَّدنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إذن : فلا شَكَّ أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يُعَدُّ بمثابة صَفْعة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكُّر وسوء استقبال ، وترد لهم الصَّاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

فعلَّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أنْ يحفظ لحين أنْ يكبُرَ هذان الغلامان ويتمكنا من حفظه وحمايته في قرية من اللئام . وكأن الحق سبحانه وتعالى أرسله لهذين الغلامين في هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار في التصدُّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقوم بإصلاحه قبل أنْ يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه في حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجدار ورَدَّه إلى ما كان عليه رَدَّ مَنْ علَّمه الله من لَدُنْه ، فيقال : إنه بنَاهُ بناءً موقوتاً يتناسب وعُمْرَ الغلامين ، وكأنه بناه على عمر افتراضي ينتهي ببلوغ الغلامين سِنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه في الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أُوتِي علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سياق الآية أنهما كانا في سِنٍّ واحدة توأمين لقوله تعالى : { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا . . } [الكهف : 82] أي : سوياً ، ومعنى الأشُدّ : أي القوة ، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوي ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال هنا : { يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا . . } [الكهف : 82] ولم يقُلْ رُشْدهما ، لأنْ هناك فرْقاً بين الرُّشْد والأَشُدّ فالرُّشْد : حُسْن التصرُّف في الأمور ، أما الأشُدَّ : فهو القوة ، والغلامان هنا في حاجة إلى القوة التي تحمي كَنْزهما من هؤلاء اللئام فناسب هنا { أَشُدَّهُمَا . . } [الكهف : 82]

ثم يقول تعالى : { وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . } [الكهف : 82] أي : يستخرجاه بما لديهما من القوة والفُتوَّة . والرحمة : صفة تُعطَى للمرحوم لتمنعه من الداء ، كما في قوله تعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . } [الإسراء : 82] فقوله : شفاء : أي : يشفي داءً موجوداً ويُبرِئه . ورحمة : أي رحمة تمنع عودة الداء مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما وحِفْظ حقِّهما ، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُرجِع الفضل لأهله ، وينفي عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول : { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .

. } [الكهف : 82] أي : أن ما حدث كان بأمر الله ، وما علَّمتك إياه كان من عند الله ، فليس لي مَيْزة عليك ، وهذا درس في أَدب التواضع ومعرفة الفضْل لأهله .

ثم يقول : { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً } [الكهف : 82] تأويل : أي إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

***

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التي سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز

من اليهود ، وهو السؤال عن الرجل الطَّواف الذي طاف البلاد : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . } .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83)

ذو القرنين : هذا لقبه؛ لأنه ربما كان في تكوينه ذا قرنين ، أو يلبس تاجاً له اتجاهان؛ أو لأنه بلغ قرني الشمس في المشرق وفي المغرب .

وقد بحث العلماء في : مَنْ هو ذو القرنين؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدوني الطواف في البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان في مقدونيا في الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد وزير المعارف الهندي إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته في الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حَصْرها في شخص بعينه؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعِف من تأثيرها ، ويصبغها بِصبْغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فنرى مَنْ يقول بأنها مسألة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم في ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العَمَل خاص بهذا الشخص ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضرب لنا مثلاً يعُمُّ أي شخص ، ماذا سيكون مَسْلكه وتصرّفه إنْ مكَّنَ الله له ومنحه الله قوة وسلطة؟

ولو حددَ القرآن هذه الشخصية في الإسكندر أو قورش أو غيرهما لَقُلْنَا : إنه حَدث فرديّ لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأُسْوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان في تعيينه فائدة لَعيَّنه الله لَنَا .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه عندما ضرب مثلاً للذين كفروا ، قال : { امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ . . } [التحريم : 10] ولم يُعيّنهما على التحديد؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان الرسول المرسَل من الله لهداية الناس لم يتمكّن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : { امرأت فِرْعَوْنَ . . } [التحريم : 11] ففرعون الذي أضَلَّ الناس وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأن الحق سبحانه يُلمِّح للناس جميعاً أن رأيك في الدين وفي العقائد رَأْي ذاتي ، لا يتأثر بأحد أيّاً كان ، لا في الهداية بنبي ، ولا في الغواية بأضلِّ الضالين الذي ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذي بها كل أحد ، وإلاَّ لو شخصتْ لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فنراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً في بنات آدم ، لذلك عيَّنها وشخَّصها؛ لأن التشخيص ضروري في مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعني أنها صالحة لأنْ تتكرر في أيّ زمان أو في أيّ مكان ، كما رأينا في قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه أبهمهم أسماءً ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين في أيّ زمان ، وفي أيّ مكان ، وبأيّ عدد .

وقوله : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . } [الكهف : 83] نلاحظ أن مادة السؤال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن أخذتْ حيّزاً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبي من القوم ست عشرة مرة ، إحداها بصيغة الماضي في قوله تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . } [البقرة : 186]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما في : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة . . } [البقرة : 189] وقوله : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ . . } [البقرة : 215] { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ . . } [البقرة : 217] { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر . . } [البقرة : 219] { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو } [البقرة : 219] { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . . } [البقرة : 220] { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض . . } [البقرة : 222] { يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ . . } [المائدة : 4] { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة } [الأعراف : 187] ثلاث مرات ، [النازعات : 42] { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال . . } [الأنفال : 1] { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح . . } [الإسراء : 85]

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . } [الكهف : 83] { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً . . } [طه : 105]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجوابَ عليها مختلف ، وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بُدَّ أنْ يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له مَلْحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله وقد نهاهم أنْ يسألوه حتى يهدأوا إلحاحٌ منهم في معرفة تصرُّفاتهم وإنْ كانت في الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أنْ يعرفوا رأي الإسلام فيها ، فكأنهم نَسُوا عادات الجاهلية ويرغبون في أن تُشرَّع كل أمورهم على وَفْق الإسلام .

وبتأمّل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدةً يأتي الجواب مباشرة دون { قُلْ } وهي في قوله

تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع . . } [البقرة : 186] وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء { فَقُلْ } وهي قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً . . } [طه : 105]

وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل { قُلْ } ، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء في هذه الآية دون غيرها؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب { قُلْ } فهذه إجابة على سؤال سُئِلَهُ رسول الله بالفعل ، أي : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتتْ في الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال . . } [طه : 105] سؤال لم يحدث بَعْد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قُلْتَ : فما الحكمة في أنْ يأتي الجواب في قوله تعالى :

{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . } [البقرة : 186] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن { إِذَا } تقتضي الفاء في جوابها؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أنْ يُجيبهم عليه بانتفاء الواسطة من أحد؛ لذلك تأتي الإجابة مباشرة دون واسطة : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . } [البقرة : 186] قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . } [الكهف : 83] أي : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التي قام بها : { قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً } [الكهف : 83]

وأيُّ شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولّى التأريخ لهذا الرجل ، ويُؤرّخ له في قرآنه الكريم الذي يُتلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة والذي يُتحدّى به ، ليظل ذِكْره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، يظل أثره فيما عمل أُسْوة وقُدْوة لمن يعمل مثله . إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أنْ يُذكَرَ عند الخلق .

فأيُّ ذِكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذي القرنين وتاريخه؟

و { مِّنْهُ } أي : بعضاً من ذِكْره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذِكْر) وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقي جميعها في الشرف والرفعة ، وفي التذكُّر والاعتبار . وإنْ كانت إذا أُطلقتْ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما في قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] وبعد ذلك تُستعمل في أيّ كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة ، كما جاء في قوله تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43]

وقد يُطلَق الذكر على ما يتبع هذا من الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم ، كما في قوله

تعالى : { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . } [الأنبياء : 10]
وقوله تعالى : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ . . } [الزخرف : 44]
أي : صيت حَسَن وشرف ورفْعة كون القرآن يذكر هذا الاسم؛ لأن الاسم إذا ذُكِر في القرآن ذاعَ صِيتُه ودَوَّى الآفاق .
وقلنا في قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أنْ خُطِف من قومه وَبيع في مكة لخديجة رضي الله عنها ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما عَلِم أهله بوجوده في مكة أتى أبوه وعمه ، وكلّموا رسول الله في شأن زيد فقال : خَيِّروه .
فلما خَيَّروا زيداً قال : ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك أكرمه النبي صلى الله عليه وسلم وسمَّاه زيدَ بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبني ، ونزل قوله تعالى : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين . . } [الأحزاب : 40] وقال : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . } [الأحزاب : 5]
فلا تقولوا : زيد بن محمد .

وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حَزِنَ زَيْد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه عَلَماً يتردد في قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو الصحابي الوحيد الذي ورد ذكره باسمه في كتاب الله في قوله تعالى : { فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . } [الأحزاب : 37]
فأيُّ شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف؟
ونلحظ في هذه الآية : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . } [الأحزاب : 5] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله صلى الله عليه وسلم بالجور ، فقال : { هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . } [الأحزاب : 5] فما فعله الرسول كان أيضاً قِسْطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .
إذن : فذِكْر ذي القرنين في كتاب الله شرف كبير ، وفي إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلته عند الله ، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صِيته بين الناس في الدنيا .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض . . } .

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84)

التمكين : أي أننا أعطيناه إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التي يريدها؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ، كما قال تعالى في آية أخرى عن يوسف عليه السلام : { وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ . . } [يوسف : 56]

فالتمكين يعني إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور ، لكن لماذا مكناه؟ مكنّاه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات .

وقوله : { وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } [الكهف : 84] أي : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شيء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه .

فماذا صنع هو؟ { فَأَتْبَعَ سَبَباً } .

فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)

أتبع السبب ، أي : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التي جعلها الله له ، فلقد مكَّن الحق لذي القرنين في الأرض ، وأعطاه من كل شيء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب .

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86)

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان ، بل كان قادماً إليه من المشرق . ومعنى { مَغْرِبَ الشمس } هل الشمس تغرب؟

هي تغرب في عين الرائي في مكان واحد ، فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً في الجيزة ، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب في مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأىَ عينك أنت؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهي دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة في كل الأوقات ، فحين نصلي نحن الظهر مثلاً يصلي غيرنا العصر ، ويصلي غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور في كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهي الظهر لله ، ولا ينتهي العصر لله ، ولا ينتهي المغرب لله ، بل لا ينتهي الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مَرِّ الزمن؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

ثم يقول تعالى : { وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ . . } [الكهف : 86] أي : في عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذي اسودّ لكثرة وجوده في الماء . وفي تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : { وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً . . } [الكهف : 86] أي : عند هذه العين { قُلْنَا ياذا القرنين

إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً } [الكهف : 86] إذن : فهذا تفويض له من الله ، ولا يُفوَّض إلا المأمون على التصرُّف { إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ . . } [الكهف : 86] ولا بُدّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بإله ، فإما أنْ تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذَ فيهم حُسْناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذي يريد الله أن يتخذه؟ يعني أنهم قد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فبيّن لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فَمنْ آمن منهم فأحسن إليه ، ومَنْ أصرّ على كُفْرِه فعذّبه ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعِظَة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ . . . } .

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87)

قوله : { فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ . . } [الكهف : 87] يعطينا إشارة إلى المهلة التي سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعِظهم ويُذكّرهم ويُفهّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13]

ثم يقول تعالى : { ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً } [الكهف : 87]

فلن نُعذّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذّبه عقوبة دنيوية فقط؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، ورَدْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة في غير المؤمن؟ لذلك نرى الأمم التي لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ في الآخرة { عَذَاباً نُّكْراً } [الكهف : 87] والشيء النكر : هو الذي لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة؛ لأننا حينما نُعذّب في الدنيا نُعذّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله في الآخرة فهو شيء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى . . . } .

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)

قوله : { فَلَهُ جَزَآءً الحسنى . . } [الكهف : 88] أي : نعطيه الجزاء الحسن { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [الكهف : 88] نقول له الكلام الطيب الذي يُشجّعه ويحْفزه ، وإنْ كلَّفناه كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التي هي ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدّ وتعاقب المقصّر مجتمع ينتهي إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أمِنَ الناسُ العقابَ

تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما في المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التي يجيدونها ، أما الذي يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقْتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذي يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيّب الذي تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : { أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [الكهف : 87-88]

فما أجمَل أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى فالحسن من باب أَوْلَى ، ومن هذا قوله تعالى : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ . . }

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89)

أي : ذهب إلى مكان آخر .

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90)

قوله تعالى : { مَطْلِعَ الشمس . . } [الكهف : 90] كما قلنا في مغربها ، فهي دائماً طالعة؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغْرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : { وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً } [الكهف : 90] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقيني الحر أو ليقيني البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل في وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظِلّون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أي : ليس لهم ما يأويهم من حَرّ الصيف أو بَرد الشتاء ، وهم أُنَاسٌ متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى في جلودهم ما يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التي يفتقدونها ، فترى في جلودهم ما يمنحهم الدفء في الشتاء والبرودة في

الصيف .

وهذا نلاحظه في البيئات العادية ، حيث وَجْه الإنسان وهو مكشوف للحر وللبرد ، ولتقلبات الجو ، لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقي الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديدَ الحساسية للحرِّ أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية في جلودها تستطيع أنْ تعيش في القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، وتشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها ، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويرونَ الملابس ، وكيف أنها زينة وسَتْر للعورة فيستخدمونها .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإنْ قِسْنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضَّرهم ووفَّر لهم أسباب الرُّقي .

وبعض المفسرين يروْنَ أن ذا القرنين ذهب إلى موضعٍ يومُه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يَرَ لها غروباً في هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يَرَ لها سِتْراً يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب في أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه : { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا } .

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91)

كذلك : يعني ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92)

ذهب إلى مكان آخر .

حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93)

السد : هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : { بَيْنَ السَّدَّيْنِ } فالبَيْن هنا يقتضي وجود فجوة بين السدين يأتي منها العدو .

{ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا . . } [الكهف : 93] أي : تحتهما { قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً } [الكهف : 93] أي : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول؛ لأن الذي يقدر أن يفهم يقدر أن

يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يقال لهم ، ومعنى : { لاَّ يَكَادُونَ . . } [الكهف : 93] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفي عنهم الفَهْم ، بل مجرد القُرْب من الفهم ، وكأنه لا أملَ في أن يفهمهم .

لكن ، يكف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : { قَالُواْ ياذا القرنين . . } [الكهف : 94] فأثبت لهم القول؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شكَّ أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يُفهمهم ويفهم منهم ، وإلا فقد كان في وُسْعه أنْ ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير ، والذي لا يألو جَهْداً في نَفْع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة ، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالُواْ ياذا القرنين . . . } .

قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94)

المراد بالقول هنا : دلالة مُعبِّرة تعبير القول ، فلا بُدَّ أنهم تعارفوا على شيء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

ويأجوج ومأجوج قوم خَلْف السدين أو الجبلين ، ينفذون إليهم من هذه الفجوة ، فيؤذونهم ويعتدون عليهم؛ لذلك عرضوا عليه أن يجعلوا له { خَرْجاً } أي : أجراً وخراجاً يدفعونه إليه على أنْ يسدَّ لهم هذه الفجوة ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق – تبارك وتعالى – عن ذي القرنين أنه : { قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . . . . } .

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95)

والقوْل هنا أيضاً قَوْل دلالة وإشارة تُفهمهم أنه في غِنىً عن الأجر ، فعنده الكثير من الخير الذي أعطاه الله ، إنما هو في حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعِينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكَّن في الأرض المالك للشيء يجب أن تكون حِسْبة لله ، وأنْ تُعين معونة لا تحوج الذي تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كأن تعلّمه أنْ يعمل بنفسه بدل أنْ تعطيه مثلاً مالاً ينفقه في يومه وساعته ثم يعود

محتاجاً؛ لذلك يقولون : لا تُعطِني سمكة ، ولكن علِّمني كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمْر .

ولما كان ذو القرنين ممكّناً في الأرض ، وفي يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو في حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ . . } [الكهف : 95] أي : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة { أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً } [الكهف : 95]

ولم يقُلْ : سداً؛ لأن السدّ الأصمَّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّة مثلاً في ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى؛ لذلك أقام لهم ردماً أي : يبني حائطاً من الأمام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردماً من التراب ليكون السد مَرِناً لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السُّوست » التي تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرة مثلاً وتُسوّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أنْ يسمعَ ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96)

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوت ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل لِيُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق تبارك وتعالى يقول : { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَآ آتَاهَا . . } [الطلاق : 7] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أي قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة ، والقِطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة؛ لكنه استخدم الحديد ، وسَدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه ، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلُون عليه .

فقوله : { حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين . . } [الكهف : 96] الصدف : الجانب ، ومنه قوله تعالى : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَفَ عَنْهَا . . } [الأنعام : 157] أي : مال عنها جانباً .

فمعنى : ساوى بين الصدفين . أي : ساوى الحائطين الأمامي والخلفي بالجبلين : { قَالَ انفخوا . . } [الكهف : 96] أي : في الحديد الذي أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذَاب : { قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً } [الكهف : 96] وهكذا انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذَاب ، فأصبح لدينا حائطٌ صَلْبٌ عالٍ أملس .

لذلك قال تعالى بعدها : { فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ . . . } .

فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97)

{ أَن يَظْهَرُوهُ } أي : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : { وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً } [الكهف : 97] لأنه صَلْب .

ثم يقول تعالى على لسان ذي القرنين : { قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي . . . } .

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

لم يَفُتْ ذا القرنين وهو الرجل الصالح أنْ يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : { قَالَ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي } [الكهف : 98] لأنني أخذتُ المقوِّمات التي منحني الله إياها ، واستعملتها في خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقوة مخلوقة لله ، المواد والعناصر في الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لي أن أقول : أنا عملتُ كذا وكذا؟

ثم يقول تعالى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي } [الكهف : 98] أي : الآخرة { جَعَلَهُ دَكَّآءَ } [الكهف : 98] فإياكم أن تظنوا أن صلابة هذا السَّد ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عمل للدنيا فحسب ، فإذا أتى وَعْد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكاً وسوّاه بالأرض ، ذلك لكي لا يغترون به ولا يتمردون على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلّين مُستضعفين ليأجوج ومأجوج . وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء .

{ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً } [الكهف : 98] واقعاً لاشك فيه .

والتحقيق الأخير في مسألة ذي القرنين وبناء السد أنه واقع بمكان يُسمَّى الآن (بلخ) والجبلان من جبال القوقاز ، وهما موجودان فعلاً ، وبينهما فَجْوة مبنيٌّ فيها ، ويقولون : إن صاحب هذا البناء هو قورش ، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ } .

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99)

فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم في بعض ، كموج الماء لا تستطيع أن تفرق بعضهم من بعض ، كما أنك لا تستطيع فصل ذرات الماء في الأمواج ، يختلط فيهم الحابل بالنابل ، والقويّ بالضعيف ، والخائف بالمخيف ، فهم الآن في موقف القيامة ، وقد انتهت العداوات الدنيوية ، وشُغِل كل إنسان بنفسه .

وقوله تعالى : { وَنُفِخَ فِي الصور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً } [الكهف : 99] .

وهذه هي النفخة الثانية؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : { وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [الزمر : 68] .

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمِياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما في قوله تعالى :

{ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ * فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة وَهُمْ يَنظُرُونَ } [الذاريات : 4344] .

أما الصَّعْقة التي تُسبِّب الإغماء فهي مِثْل التي حدثت لموسى عليه السلام حينما قال : { قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين } [الأعراف : 143] .

فالجبل الأشمّ الراسي الصَّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخر موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلّي سبحانه؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى عليه السلام فقال له : ليست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن تراني انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أن يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلّي الله؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التي نحن عليها في الدنيا . أما في الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدّنا إعداداً آخر ، وسيخلقنا خِلْقة تناسب تجلّيه سبحانه على المؤمنين في الآخرة؛ لأنه سبحانه القائل : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة : 2223] .

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد في كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً تقتاتون ولا تتغوطون؛ لأن طبيعتكم في الآخرة غير طبيعتكم في الدنيا .

لذلك جاء السؤال من موسى عليه السلام سؤالاً علمياً دقيقاً : { رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ } [الأعراف : 143] أي : أرِني كيفية النظر إليك؛ لأني بطبيعتي وتكويني لا أراك ، إنما إنْ أريتني أنت أرى .

وفي ضوء هذه الحادثة لموسى عليه السلام نفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تُخيِّروا

بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صُعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى »
.

قالوا : لأنه صُعِق مرة في الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ }

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100)

أي : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء في قوله تعالى : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } [مريم : 71] والبعض يظن أن (واردها) يعني : داخلها ، لا بل واردها بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترِد الماء بمعنى : يراها ويمر بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه؛ ذلك لأن الصراط الذي سيمر على الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ } [آل عمران : 185] .

أما الكافر فسيعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلِتْ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة في سورة التكاثر حيث يقول تعالى : { أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم } [التكاثر : 18] .

والمراد : لو أنكم تأخذون عنّي العلم اليقيني فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأنني أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمّيه علم اليقين ، أما في الآخرة فسوف ترون النار عينها . وهذا هو عين اليقين أي : الصورة العينية التي ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهي علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة؛ لذلك قال تعالى بعدها : { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم } [التكاثر : 8] .

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النار مرحلة ثالثة هي حّقُّ اليقين ، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها ، كما قال تعالى : { وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم } [الواقعة : 9296] .

إذن : عندنا عِلْم اليقين ، وهو الصورة العلمية للنار ، والتي أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، وأن من صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن في بحبوحة الدنيا وسِعَتها . وعَيْن اليقين : في الآخرة عندما نمرُّ على الصراط ، ونرى النار رؤيا العين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفاتها كذا وكذا فأُعطِيك عنها صورة علمية صادقة ، فإنْ صدَّقتني فهذا عِلْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رَأْيَ العين فهذا عَيْن اليقين ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً } [الكهف : 100] ليس كعرضها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحقّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه : { الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ }

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101)

أي : على أبصارهم غشاوة تمنعهم إدراك الرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل : { وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } [الكهف : 101] .

والمراد هنا السمع الذي يستفيد منه السامع ، سَمْع العبرة والعِظَة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سَمَاعٌ لا فائدةَ منه؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم في الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق } [المائدة : 83] .

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن في لغتنا العامية : (أنت مطنش عني) ، يعني لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ؟ قال : نعم ، قال : أعْطني مائة جنيه ، قال : كأنِّي لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : 26] .

يعني : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر في سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذهم العربية وملكتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير في سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربي الفصيح أنْ يهتزّ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعْجِز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ } [

فصلت : 26] .

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : { وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الجاثية : 78] .

وقد يتعدَّى الأمر مجرد السماع إلى منْع الكلام كما جاء في قوله تعالى : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } [إبراهيم : 9] .

فليس الأمر منْع الاستماع ، بل أيضاً منع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم في حالة انتباه فتُؤثّر فيهم ، أي منعوهم الكلام كما يُقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَحَسِبَ الذين كفروا }

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102)

قوله تعالى : { أَفَحَسِبَ الذين كفروا أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دوني أَوْلِيَآءَ } [الكهف : 102]

يعني : أعَمُوا عن الحق فظنُّوا أنْ يتخذوا عبادي من دوني أولياء؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عِبَادي) وقلنا : إنهم المؤمنون بي المحبون لي ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرَّقْنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحبين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : { لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون } [النساء : 172] .

فكيف تتخذونهم أولياء من دوني وتعاندونني بهم وهم أحبتي؟

يقول تعالى : { وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله } [التوبة : 30] ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويروْنَ شرفهم وعِزَّتهم في عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دوني ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك في أعدائي ، فهذا منهم تغفيل حتى في اتخاذ الشركاء؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعِدَّ لهم جهنم :

{ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } [الكهف : 102] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم . ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين }

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103)

(قُلْ) أي : يا محمد { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً } [الكهف : 103] الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعني أكثر خسارة (أَعْمَالاً) أي : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرين هم : { الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ }

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)

وقد ضلَّ سَعْي هؤلاء؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكراهم .

ومعنى : { ضَلَّ سَعْيُهُمْ } [الكهف : 104] أي : بطُل وذهب وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صَوَّرهم الحق سبحانه في قوله : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً } [النور : 39] .

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأَجْر؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا الجزاء يكون في الدنيا؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم في جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

ومع ذلك يُبقي للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدي عليه ، وفي حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « سمعت أن مُحدِّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألا أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَّلتها ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِئ ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقا .

قال جابر : حدِّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : » إن الله ينادي يوم القيامة : يا ملائكتي ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصَّه منه ، حتى اللطمة « .

فانظر إلى دِقَّة الميزان وعدالة السماء التي تراعي حَقَّ الكافر ، فتقتصّ له قبل أنْ يدخل النارَ ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً .

وفي قوله تعالى : { ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا } [الكهف : 104] جاءت كلمة الضلال في القرآن الكريم في عِدّة استعمالات يُحدِّدها السياق الذي وردتْ فيه . فقد يأتي الضلال بمعنى الكفر ، وهو قمة الضلال وقمة المعاصي ، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى :

{ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل } [البقرة : 108] .

ويُطلق الضلال ، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن ، كما جاء في قوله تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً } [الأحزاب : 36] .

ويُطلق الضلال ، ويُراد به أنْ يغيب في الأرض ، كما في قوله تعالى : { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة : 10] .

يعني : غِبْنا فيها واختفينا . ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان ، كما في قوله تعالى : { أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى } [البقرة : 282] .

ويأتي الضلال بمعنى الغفلة التي تصيب الإنسان فيقع في الذنب دون قصد . كما جاء في قصة موسى وفرعون حينما وكز موسى الرجل فقضى عليه ، فلما كلمه فرعون قال : { فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين } [الشعراء : 20] .

أي : قتلتُه حال غفلة ودون قصد ، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التي صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتي الضلال بمعنى : ألاّ تعرف تفصيل الشيء ، كما في قوله تعالى : { وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى } [الضحى : 7] أي : لا يعرف ما هذا الذي يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه : { أولئك الذين كَفَرُواْ }

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105)

{ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } [الكهف : 105] والآيات تُطلَق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التي أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة : { بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } [الكهف : 105] هنا عامة في كل هذه

الأنواع .

(ولقائه) أي : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كليةً فقال : { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [المؤمنون : 82] .

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 36] .

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا في ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هي الحقيقة .

ثم يقول تعالى : { فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } [الكهف : 105] أي : بَطُلت وذهب نفعُها { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً } [الكهف : 105] .

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً } [الكهف : 105] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التي تثبت الميزان ، كما في قوله تعالى : { وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء : 47] .

وقوله تعالى : { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ } [القارعة : 711] .

ونقول : إن العلماء في التوفيق بين هذه الآيات قالوا : المراد بقوله تعالى : { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً } [الكهف : 105] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أي : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن في نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندي . أي : لا قيمة له .

وبالبحث في هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ } [الكهف : 105] ولم يَقُل : عليهم ، إذن : الميزان موجود ، ولكنه ليس في صالحهم ، فالمعنى : لا نقيم لهم ميزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ }

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)

(ذلك) أي : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنّياً مِنَّا عليهم أو ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفرهم فقوله { بِمَا كَفَرُواْ } [الكهف : 106] أي : بسبب كفرهم .

{ واتخذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } [الكهف : 106] فقد استهزأوا بآيات الله ، وكلما سمعوا آية قالوا : أساطيرُ الأولين : { إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين } [القلم : 15] .

وكذلك لم يَسْلَم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سخريتهم واستهزائهم ، والقرآن يحكي عنهم

قولهم لرسول الله : { ياأيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر : 6] فقولهم { نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر } [الحجر : 6] أي : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

وفي سورة « المنافقون » يقول القرآن عنهم : { هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ } [المنافقون : 7] فقولهم : { رَسُولِ الله } [المنافقون : 7] ليس إيماناً به ، ولكن إمّا غفلة منهم عن الكذب الذي يمارسونه ، وإما سُخْرية واستهزاءً كما لو كنتَ في مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدَّعِي العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفي آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : { وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } [القلم : 51] .

ثم يتحدث القرآن عن المقابل لهؤلاء ، فيقول : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ }

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107)

قوله : { إِنَّ الذين آمَنُواْ } [الكهف : 107] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجداني العقدي لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرّع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيماني بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم في قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شّرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لأنك حين تُحسِن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِيّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه في يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه؛ لذلك تراه يكره وجوده ، ولا يحب أنْ يراه وربما دبَّر لك المكائد لتختفي من طريقه ، وتُخلي له الساحة؛ لأنك الوحيد الذي يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتي على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له ليُكرمك فإذا به يُهينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقِرك ، فعلتَ له لِيُواليك فإذا به عدو لك؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجل الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفي لك وقد لا يُوفي .

ثم أردف الحق سبحانه وتعالى الإيمانَ بالعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح لابُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات } [الكهف : 107] .

{ وَعَمِلُواْ الصالحات } [الكهف : 107] يعني : عمل الشيء الصالح ، فإن كان الشيء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذي يشرب منه

الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقي فيه ما يسدُّه أو يُفسِده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسِّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبني حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغي أنْ تستثقلَ أوامر الشارع وتكليفاته؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك وَليُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفّر لك هذا التكافل الاجتماعي تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر مطمئنة حال العُسْر .

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكافلة اليتيم وإكرامه ، فإنه يُطمئِنك على أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه؛ لأنك في مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم في ظل الإسلام وتعاليمه أسعَد حظاً من حياته في رعاية أبيه؛ لأنه بموت أبيه يجد المؤمنين جميعاً آباءَ له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه في حياته لا يُفيده بشيء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفّل به .

لذلك يقول أحمد شوقي :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أَبَواهُ ... مِنْ هَمِّ الحيَاةِ وخَلَّفَاهُ ذَليلا

إنَّ اليَتِيمَ هُوَ الذِي تَلْقَى لَهُ ... أُمًّا تخلَّتْ أَوْ أباً مَشْغُولا

وقوله تعالى : {كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً } [الكهف : 107] الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومَقوّمات الحياة وتَرَفها ، والإنسان حينما يُعِدُّ النُزْلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعِدّ لِلنُّزُل هو الله تبارك وتعالى؟

ثم يقول الحق سبحانه : { خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ }

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108)

وخلود النعيم في الآخرة يُميّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتي على قَدْر تصوُّرنا في النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة في التنعُّم في الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما في الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

لذلك يقول تعالى بعدها : { لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً } [الكهف : 108] أي : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر في النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز

متعةً ابتغى أكثر منها ، هذا في الدنيا أما في الآخرة فالأمر مختلف ، وإلا فكيف يطلب نعيماً أعلى من الجنة الذي قال الله عنه : { كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً } [البقرة : 25] .

أي : كلما رزقهم الله ثمرةً أتتْهم أخرى فقالوا : لقد رُزِقْنا مثلهم من قبل ، وظنّوها كسابقتها ، لكنها ليست كسابقتها بل بطعم جديد مختلف ، وإن كانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسباب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يُخرِج لك الفاكهة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى في قدرتها؛ لذلك يقول تعالى : { وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً } [البقرة : 25] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف .

والإنسان مِنّا لِيشقَّ طريقه في الحياة يظل يتعلّم ، ليأخذ شهادة مثلاً أو يتعلم مهنة ، ويظل في تعب ومشقة ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من عمره أملاً في أن يعيش باقي حياته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وَهْب أنك ستعيش باقي حياتك في راحة ، فكم سيكون الباقي منها؟

أما الراحة الأبدية في الآخرة فهي زمن لا نهايةَ له ، ونعيم خالد لا ينتهي ، ففي أيِّ شيء يطمع الإنسان بعد هذا كله؟ وإلى أيِّ شيء يطمح؟

لذلك قال تعالى بعدها : { قُل لَّوْ كَانَ البحر }

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109)

لأن قدرته تعالى لا حدود لها ، ومادامت قدرته لا حدود لها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها؛ لذلك لو كان البحر مداداً أي : حِبْراً يكتب به كلمات الله التي هي (كُنْ) التي تبرز المقدورات ما كان كافياً لكلمات الله { وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً } [الكهف : 109] أي : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرِج أحسن من هذه ، أما صنعة الله فلا تقف عند حد؛ لأن المصنع يعالج الأشياء ، أما الحق تبارك وتعالى فيصنعها بكلمة كُنْ؛ لذلك نجد في أرقى فنادق الدنيا أقصى ما توصَّل إليه العلم في خدمة البشر أنْ تضغط على زِرّ معين ، فيُخرِج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكَّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسْبقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضغط على زر خاص بكل نوع ، لكن هل يوجد نعيم في الدنيا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهي عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [يونس : 24] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم في الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعِها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أسباب الله ، وتعالوا عِيشُوا بالله ، كنتم في عالم الأسباب فتعالوْا إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم في هذه الآية عن المداد الذي تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التي يكتب بها في آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله } [لقمان : 27] .

ونقف هنا عند دِقَّة البيان القرآني ، فلو تصوَّرنا ما في الأرض من شجر أقلام ، مع ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْر لها ولا تنتهي ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود ثابت لاَ يزيد ولا ينقص . لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد . قال سبحانه : { والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ } [لقمان : 27] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء في الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء في الأرض ثابتة لا تزيد؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَرِب طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بول وعرق وفضلات في عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التي شربها ، وقد تبخرتْ وأخذَتْ دورتها من جديد؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . }

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

(قُلْ) أي : يا محمد ، وهذا كلام جديد { قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . } [الكهف : 110] يعني : خُذُوني أُسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسي على المنهج الذي أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشيء وأنا عنه بنجْوَى . بل بالعكس كان صلى الله عليه وسلم أقلَّ الناس حَظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان في المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ويرتدُونَ أغْلى الثياب في حين كان صلى الله عليه وسلم يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد في بيته نار لطعام ، وكان يرتدي المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقي الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ،

فحُرِموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان صلى الله عليه وسلم أدنى الأسوات أي : أقل الموجودين في مُتع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْرِ لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُمَيِّزه عن غيره في زَهْرة الدنيا الفانية ، إنما مَيَّزتْه في القيم والفضائل .

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم يقول : « يرد عليَّ يعني من الأعلى فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

والآية هنا لا تميزه صلى الله عليه وسلم عن البشر إلا في أنه : { يوحى إِلَيَّ } [الكهف : 110] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

ثم يقول تعالى : { أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ } [الكهف : 110] أنما : أداة قَصْر { إلهكم إله وَاحِدٌ } [الكهف : 110] أي : لا إله غيره ، وهذه قِمَّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى :

{ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً } [الزمر : 29] .

فلا يستوي عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضي هذا سخط ذاك . هل يستوي وعبد مملوك لسيد واحد؟ إذن : فمما يُحمَد الله عليه أنه إله واحد .

{ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ } [الكهف : 110] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم في الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضّح لنا غاية أَسْمى من الجنة ونعيمها ، هي لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : { يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ } [الكهف : 110] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمن أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه في الآخرة : { فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً } [الكهف : 110] فهذه هي الوسيلة إلى لقاء الله؛ لأن العمل الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآخر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حُبِّه لك فارتاحتْ نفسك في ظلِّ طاعته ، فإذا بك إذا أويْتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحد ، ولا تخاف عاقبة أمر لا تُحمَدُ عقباه ، فمَنِ الذي أنعم عليك بكل هذه النعم ووفَّقك لها؟

ثم : { وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } [الكهف : 110] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحد ، فلا تشرك بعبادة الله شيئاً ، ولو كان هذا الشيء هو الجنة ، فعليك أنْ تسموَ بغاياتك ، لا إلى الجنة بل إلى لقاء ربها وخالقها والمنعِم بها عليك .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذي أعدَّ وليمة عظيمة فيها أطايب الطعام والشراب ، ودعا إليها أحبابه فلما دخلوا شغلهم الطعام إلا واحداً لم يهتم بالطعام والشراب ، وسأل عن صاحب الوليمة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبدُونَ مِنْ خَوْفِ ... نارٍ ويروْنَ النَّجاةَ حَظًّا جَزِيلاً

أَوْ بأنْ يسكنُوا الجِنَان فيحظَوْاَ ... بقصُورٍ ويشْرَبُوا سَلْسَبِيلا

ليسَ لِي بالجنَانِ والنَّارِ حظٌّ ... أنَا لا ابتغِي بحُبِّي بَدِيلا

وهذا يشرح لنا الحديث القدسي : « لوْ لَمْ أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أَهْلاً لأنْ أُعْبَد؟ » .

فلا ينبغي للعبد أن يكون نفعياً حتى في العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْل بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها .

كهيعص (1)

هذه خمسة حروف مقطعة ، تُنطق باسم الحرف لا بمُسمَّاه ، لأن الحرف له اسم وله مُسمَّى ، فمثلاً كلمة (كتب) مسماها (كتب) أما بالاسم فهي كاف ، تاء ، باء . فالاسم هو العَلَم الذي وُضِع للدلالة على هذا اللفظ .

وفي القرآن الكريم سور كثيرة ابتُدِئَتْ بحروف مُقطعة تُنطق باسم الحرف لا مُسمَّاه ، وهذه الحروف قد تكون حَرفاً واحداً مثل : ن ، ص ، ق . وقد تكون حرفين مثل : طه ، طس . وقد تكون ثلاثة أحرف مثل : الم ، طسم . وقد تأتي أربعة أحرف مثل : المر . وقد تأتي بخمسة أحرف مثل : كهيعص ، حمعسق .

لذلك نقول : لا بُدَّ في تعلُّم القرآن من السماع ، وإلاَّ فكيف تُفرِّق بين الم في أول البقرة فتنطقها مُقطَّعة وبين { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح : 1] فتنطقها موصولة؟ وصدق الله تعالى حين قال : { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ } [القيامة : 18] .

ونلاحظ في هذه الحروف أنه يَنطِق بالمسمّى المتعلم وغير المتعلم ، أما الاسم فلا ينطق به ولا يعرفه إلا المتعلّم الذي عرف حروف الهجاء . فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أميّاً لم يجلس إلى معلم ، وهذا بشهادة أعدائه ، فمن الذي علمه هذه الحروف؟

إذن : فإذا رأيت هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمَّيات الحروف لا بأسمائها .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ }

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)

الذكْر : له معانٍ متعددة ، فالذكْر هو الإخبار بشيء ابتداءً ، والحديث عن شيء لم يكُنْ لك به سابق معرفة ، ومنه التذكير بشيء عرفته أولاً ، ونريد أن نُذكِّرك به ، كما في قوله تعالى : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين } [الذاريات : 55] .

ويُطلَق الذكْر على القرآن : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] وفي القرآن أفضل الذكر ، وأصدق الأخبار والأحداث . كما يُطلق الذكر على كل كتاب سابق من عند الله ، كما جاء في قوله تعالى : { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] .

والذكْر هو الصِّيت والرِّفْعة والشرف ، كما في قوله تعالى : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ } [الزخرف : 44] وقوله تعالى : { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ } [الأنبياء : 10] أي : فيه صِيتكم وشرفكم ، ومن ذلك قولنا : فلان له ذِكْر في قومه .

ومن الذكْر ذِكْر الإنسان لربه بالطاعة والعبادة ، وذكْر الله لعبده بالمثوبة والجزاء والرحمة ومن ذلك قوله تعالى : { فاذكروني أَذْكُرْكُمْ } [البقرة : 152] .

فقوله تعالى : { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ } [مريم : 2] أي : هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به .

والرحمة : هي تجليّات الراحم على المرحوم بما يُديم له صلاحه لمهمته ، إذن : فكلُّ راحم ولو من البشر ، وكلُّ مرحوم ولو من البشر ، ماذا يصنع؟ يعطى غيره شيئاً من النصائح تُعينه على أداء مهمته على اكمل وجه ، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذي خلق الخلق؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خَلْقه محمد؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم ، فلا وَحْيَ ولا رسالة من بعده ، ولا إكمال . إذن فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق ، ورحمة كل نبي تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته ، ومهمة محمد أكرم المهمات .

وكلمة (رَحْمَة) هنا مصدر يؤدي معنى فعله ، فالمصدر مثل الفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول ، كما نقول : آلمني ضَرْب الرجل ولدَه ، فمعنى : { رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ } [مريم : 2] أي : رحم ربُّك عبده زكريا .

لذلك قال تعالى : { رَحْمَةِ رَبِّكَ } [مريم : 2] لأنها أعلى أنواع الرحمة ، وإن كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا ، فقد خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به ، بل هي رحمة عامة لجميع العاملين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

فالمراد من { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ } [مريم : 2] يعنى هذا الذي يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذِكْر وحديث وخبر رحمة ربك التي هي أجلُّ الرحمات بعبده زكريا .

وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخَلْق مهانة ومذلَّة ، وهي كلمة بشعة لا تُقبل ، أما العبودية لله تعالى فهي عِزٌّ وشرف ، بل مُنتهَى العِزّ والشرف والكرامة ، وعللنا ذلك بأن العبودية التي تسوء وتُخزِن هي عبودية العبد لسيد يأخذ خيره ، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده .

لكن ، ما نوع الرحمة التي تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بخبر عبده زكريا؟

قالوا : لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة في الكون ، وطلاقة القدرة في أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبّبات أسباباً ، ثم قال للأسباب : أنت لست فاعلة بذاتك ، ولكن بإرادتي وقدرتي ، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلي أبطلْتُ عملك ، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به .

ومن ذلك ما حدث في قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار في النار ، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم ، أو بجَعْل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم أن يُنجي إبراهيم؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكّنَ خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه ، أو يُنزِل مطراً يُطفئ ما أوقدوه من نار ، لكن ليست نكاية القوم في هذا ، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم ، أو نزل المطر فأطفأ النار لقالوا : لو كُنَّا تمكنّا منه لفعلنا كذا وكذا ، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا .

إذن : شاءت إرادة الله أنْ تكيد هؤلاء ، وأن تُظهِر لهم طلاقة القدرة الإلهية فتُمكّنهم من إبراهيم حتى يلقوه في النار فعلاً ، ثم يأتي الأمر الأعلى من الخالق سبحانه للنار أن تتعطل فيها خاصية الإحراق : { قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] .

وكذلك في قصة رحمة الله لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة في مسألة الخَلْق ، وليلفتنا إلى أن الخالق سبحانه جعل للكون أسباباً ، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبِّب ، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا في الأسباب؛ لأن الخالق سبحانه قد يعطيكم بالأسباب ، وقد يُلغيها نهائيا ويأتي بالمسبّبات دون أسباب .

وقد تجلَّتْ طلاقة القدرة في قصة بَدْء الخَلْق ، فنحن نعلم أن جمهرة الناس وتكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة ، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسباب والخالق سبحانه يُدير خلقه على كُلِّ أوجه الخَلْق ، فيأتي آدم دون ذكر أو أنثى ، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر .

فالقدرة الإلهية إذن غير مُقيَّدة بالأسباب ، وتظلّ طلاقة القدرة هذه في الخَلْق إلى أنْ تقومَ الساعة ، فنرى الرجل والمرأة زوجين ، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه ، فهو القائل :

{ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [الشورى : 4950] .

وطلاقة القدرة في قصة زكريا عليه السلام تتجلى في أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا في أنْ يرزقَه الولد . قال تعالى : { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ } [مريم : 2] .

أي : رحمه الله ، لكن متى كانت هذه الرحمة؟

يقول الحق تبارك وتعالى : { إِذْ نادى رَبَّهُ }

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3)

أي : في الوقت الذي نادى فيه ربه نداءً خفياً .

والنداء لَوْن من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى خبر ، وهو أن تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب . وإنشاء ، وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قَوْلٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء؛ لأنك تريد أن تنشيء شيئاً من عندك ، فلو قُلْت : يا محمد فأنت تريد أن تنشئ إقبالاً عليك ، فالنداء إذن طلبُ الإقبال عليك ، لكن هل يصح أن يكون النداء من الله تعالى بهذا المعنى؟ إنك لا تنادى إلا البعيد عنك الذي تريد أن تستدنية منك .

فكيف تنادى ربك تبارك وتعالى وهو أقرب إليك من حبل الوريد؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً في كل وقت ، فما الغرض من النداء هنا؟ نقول : الغرض من النداء : الدعاء .

ووَصْف النداء هنا بأنه : { نِدَآءً خَفِيّاً } [مريم : 3] لأنه ليس كنداء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رَفْع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء لله تبارك وتعالى الذى يستوي عنده السر والجهر ، وهو القائل : { وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } [الملك : 13] .

ومن أدب الدعاء أنْ ندعوَه سبحانه كما أمرنا : { ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } [الأعراف : 55] .

وهو سبحانه { يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى } [طه : 7] أي : وما هو أَخْفى من السر؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سِرّاً ، علم أنه سيكون سراً .

لذلك ، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفي؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشيء ، إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خَفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضحَ أمره عند الناس .

أما الحق سبحانه فهو ستَّار يحب الستر حتى على العاصين ، وكذلك ليدعو العبد رَبَّه بما يستحي أنْ يذكره أمام الناس ، وليكون طليقاً في الدعاء فيدعو ربه بما يشاء؛ لأنه ربُّه ووليه الذي يفزع إليه . وإنْ كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شئ ، فإن الله تعالى يفرح بك أن سألته .

لكن لماذا أخفي زكريا دعاءه؟

دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ، ولكن كيف يتحقق هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء : يا رب لا ملجأ لي إلا أنت فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون ، وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته .

أخفاه أيضا؛ لأنه طلب الولد في وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلاّ أنه لم يأتمنهم على منهج الله؛ لأن ظاهر حركتهم في الحياة غير متسقة مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم؟ فإذا دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه؛ لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسِرُّه بينه وبين ربه تعالى .

سؤال آخر تنبغي الإجابة عليه هنا : لماذا يطلب زكريا الولد في هذه السن المتأخرة ، وبعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وأصبحت امرأته عاقراً؟

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة في ذلك في الآيات القادمة فقال : { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم : 6] .

إذن : فالعِلَّة في طلب الولد دينية مَحْضة ، لا يطلبه لمغْنَم دنيوي ، إنما شغفه بالولد أنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد .

لذلك قوله : (يرثني) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » وبذلك يخرج النبي من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم .

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى؛ لذلك قال بعدها : { وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم : 6] أي : النبوة التي تناقلوها . فلا يستقيم هنا أبداً أن نفهم الميراث على انه ميراث المال أو متاع الدنيا الفاني .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } [النمل : 16] ففي أيِّ شئ ورثه؟ أورثه في تركته؟ إذن : فما موقف إخوته الباقين؟ لا بد أنه ورثه في النبوة والملك ، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادي .

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال : { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ }